البيان
مجلة أدبية ثقافية شهرية
تصدر عن رابطة الأدباء الكويتيين
العـــدد 577 أغسطس 2018

- الخطاب الاجتماعي في الرواية الكويتية المعاصرة
- حجاجيّة الفصل والوصل في خطاب المتنبي الحجاجي
- المكتبات التجارية القديمة في الكويت

البيان
مجلة أدبية ثقافية شهرية تصدر عن رابطة الأدباء الكويتيين - العدد 577 أغسطس 2018

العـــــدد 577 أغسطس 2018

مـجلـــة أدبيـــة ثقافيـة شهـرية
تصدر عـــن رابطـــة الأدبـــاء الكويتيين

صدر العدد الأول في أبريل (1966)

الإشـــــراف الـعـام
طـلال سـعد الرميضـي

رئـــيس الـتـحـريـر
عـائـشـة الـفـجـري

سـكرتـيـر الـتحـريـر
عـــدنـــان فـــــرزات

الـتـدقـيـق الـلـغـوي
خـلـيـل الســـلامـة

الإخـــــراج الـفـنـي
لـــورانـــس عـبـدو

موقع رابطة الأدباء على الإنترنت
www.alrabeta.org
البريد الإلكتروني
elbyankw@gmail.com
elbyan@hotmail.com
وزارة الإعلام - مطبعة حكومة دولة الكويت

مجلة «البيان» مجلة أدبية ثقافية، تصدر عن رابطة الأدباء في الكويت، وتعنى بنشر الأعمال الإبداعية والبحوث والدراسات في مجالات الآداب والعلوم الإنسانية، ويتم النشر فيها وفق القواعد التالية:

1 - أن تكون المادة خاصة بمجلة البيان وغير منشورة أو مرسلة إلى جهة أخرى.
2 - المواد المرسلة تكون مطبوعة ومدققة لغويا ومرفقة بالأصل إذا كانت مترجمة.
3 - يفضل إرسال المادة محملة على CD أو بالإيميل.
4 - موافاة المجلة بالسيرة الذاتية للكاتب مشتملة على الاسم الثلاثي والعنوان ورقم الهاتف ورقم الحساب المصرفي.
5 - المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها فقط.
6 - مكافأة النشر 100 يورو، ويسقط حق المطالبة بها في حال عدم استلامها بعد 6 أشهر.

ثـمـن الـعـدد

الكويت: 500 فلس، البحرين: 750 فلسًا، قطر: 8 ريالات، دولة الإمارات العربية المتحدة: 8 دراهم، سلطنة عمان: ريال واحد، السعودية: 8 ريالات، الأردن: دينار واحد، سورية: 50 ليرة، مصر: 3 جنيهات، المغرب: 10 دراهم.

الاشتراك السنوي

للأفراد في الكويت: 10 دنانير
للأفراد في الخارج: 15 دينارًا أو ما يعادلها
للمؤسسات والوزارات في الداخل: 20 دينارًا كويتيًا
للمؤسسات والوزارات خارج الكويت: 25 دينارًا كويتيًا أو ما يعادلها

المـــراســـلات

رئيس تحرير مجلة البيان
ص.ب 34043 العديلية - الكويت، الرمز البريدي 73251
هاتف المجلة: 22518286 965+
هاتف الرابطة: 25106022 / 22518282
فاكس: 22510603

Al Bayan

LITERARY MAGAZINE ISSUED

BY KUWAITI WRITERS' ASSOCIATION

(577) August 2018

General Supervision
Talal Saad Alrumaidhi

Editor in chief
Aisha Al-Fajri

Correspondence Should be Addresses to:

The Editor,
Al Bayan Magazine
P.O.Box: 34043 Audilyia - Kuwait
Code: 73251 - Fax: +965 22510603
Tel.: (Magazine) +965 22518286 - 22518282 - 22510602

المحتوى

■ كلمة البيان 5

مواجهة الكارثة بالإبداع ..... البـــيان 6

■ دراسات 9

● الخطاب الاجتماعي في الرواية الكويتية المعاصرة ..... د. فيصل محسن القحطاني 10

● حجاجيّة الفصل والوصل في خطاب المتنبي الحجاجي.... د. محمد سعيد عبد الله 26

■ رحّالة 39

● الأديب التّونسي علي الورداني مكلّفًا من السّلطان بمهمة علمية في أسبانيا ..... د. مصطفى الستيتي 40

■ مقالات 51

● أعـــلام من بـلدي ..... د. ليلى محمد صالح 52

○ الشيخ عبدالله الجابر 52

○ مريم عبد الملك الصالح 54

○ الدكتور الفنان يوسف دوخي..... 56

● المكتبات التجارية القديمة في الكويت 4/4 ..... خالد سالم الأنصاري 58

● سياحة الكلمات ..... عبد اللطيف إبراهيم النصف 63

● الأديبة فاطمة يوسف العلي
تضع في المرأة مصباحاً يضيء عتمة الطريق ..... علي عبد الفتاح 69

شعر ونصوص 79

- الْحَجُّ ..... د. فاطمة العبد الله العبيدان 80
- حَجَّ الحجيج ..... م/فهد بن عيد الكريباني 82
- اللغة الفرقدية ..... آمنة أشكناني 83

قصة 85

- تشتبك العيون بالدهشة ! ..... منى الشافعي 86
- كلب وثلاثة أشباح ..... لطف الصراري 90

محطات قلم 96

- زمن (ص.ب) عند الأدباء ..... طلال سعد الرميضي 96

كلمة البيان

مواجهة الكارثة بالإبداع

صحيح إنها ذكرى أليمة ووصمة حزن على جبين التاريخ الحديث، إلا أنها كانت بالنسبة للكويتيين منعطفاً كبيراً على أكثر من صعيد، وما يعنينا هنا في مجلة أدبية، هو الصعيد الثقافي.

تلك الذكرى هي ذكرى الاحتلال الآثم الذي حاول أن يهدم كل القيم، لكنه لم يتمكن، ومضى الطاغية إلى مصيره المحتوم، وظل الحق متربعاً على منبره. أنتجت هذه الذكرى أعمالاً ثقافية كبيرة، وبدل أن تكون فجوة كما رسم لها الطاغية، حولها الكويتيون إلى نافذة أطلت من خلالها شموس الإبداع.

ما حدث في الثاني من أغسطس عام 1990م، أيقظ وعياً كامناً في النفوس. كانت الأعمال الأدبية تمشي بمسار اجتماعي، عدا الشعر الذي خاض في قضايا أخرى، أما السرد، فكان في غالبيته ينحو نحو رصد المشاكل الاجتماعية، عدا أعمال نادرة تناولت تحولات الحياة من قبل وبعد النفط. ولكن بعد الزلزال النفسي والسياسي والاجتماعي الذي أحدثه الاحتلال، بدأ الأدباء السرديون يلحظون أن ما يدور في العالم يحمل معه عواصف قد تهدد الوجود بثباته واستقراره. فظهرت الكتب التي كانت أفكارها تعيش بأمان بعيداً عن الأزمات والصدمات المفاجئة.

السمة الفنية التي اتسمت بها هذه الأعمال هي "الواقعية"، فمعظمها كان ينقل وقائع حقيقية حصلت، ذلك أن الواقع الذي حصل كان ربما أغرب من الخيال، وأوسع من أن يتخيله عقل الكاتب. لذلك حكى كل كاتب الوقائع التي شاهدها أو قد يكون سمع بها من أقربائه وأصدقائه، ليخرج لنا أدب واقعي شأنه كشأن معظم الآداب التي واكبت الحروب.

على صعيد الحجم، كان أكبر عمل روائي ظهر عن الاحتلال هو سباعية الكاتب إسماعيل فهد إسماعيل، التي جاءت بعنوان "إحداثيات زمن العزلة". كانت رواية تفصيلية، ولكنها في إطار زمني

محدود لا يتعدى السبعة شهور، ومع ذلك تمكن كاتبها من إعطاء زخم كبير يشعرك أنك كنت تعيش سنوات وليس مجرد شهور. حيث نرى أن الأعمال التي تأتي على أجزاء، غالباً ما تتحدث عن فترات زمنية مديدة ومتباعدة، مثل ثلاثية الكاتب نجيب محفوظ: "بين القصرين"، "قصر الشوق"، "السكرية". وكذلك خماسية الكاتب الكاتب عبدالرحمن منيف "مدن الملح": "الأخدود"، "التيه"، "بادية الظلمات"، "المنبت"، "تقاسيم الليل والنهار".

قد تكون معظم الأعمال الكويتية التي تحدثت عن الاحتلال واقعية، وبعضها يقترب من التسجيلية، لكن ما يحسب لها أنها لم تكن مؤدلجة، ولا تتبع منهجاً سياسياً بعينه، بقدر ما كانت صادقة وإن دخلتها الصنعة الإبداعية وحرفة الكاتب.

الذي حدث بعد هذه الفترة، أن أبواب الكتابة تفتحت على مصراعيها، واتسعت دائرة العمل الإبداعي على مختلف الأصعدة، ولكن هل نعتد بالكم أم النوع؟ بالتأكيد الحالة الثانية هي الأجدى، ولكن كون يصبح هناك وفرة في الأدباء، فهذا أمر إيجابي يعني عدة أشياء، أولها أن الحدث الذي أصاب الكويت أيقظ الوعي في الناس، ومَن كان متردداً في دخول مجال الكتابة أصبح أكثر جرأة على اقتحام هذا العالم البهي الجميل. الأمر الآخر، يعكس تحضر التفكير الكويتي، حيث واجه الناس المصيبة بالأدب والكتابة والإبداع ولم يفكروا بعقلية انتقامية. فكسبت الكويت أدباء جدداً، وربحت نهضتها الحديثة.

دراسات

الخطاب الاجتماعي في الرواية الكويتية المعاصرة**

بقلم: د. فيصل محسن القحطاني*

توطئة

تسعى الرواية الكويتية مع مثيلاتها من روايات الوطن العربي لتطوير أدواتها، وتحقيق أثر على مستوى التلقي المجتمعي، وذلك على مستويين: مستوى الإنتاج المتمثل في كم المنجز الروائي، وعلى مستوى الكيفية، ولاشك أن هذا البحث معني بالكيفية كونها المؤشر الحقيقي على المستوى المخول لتحقيق هذا التأثير القرائي في بعديه النخبوي والجماهيري، من هذا المنطلق نلحظ بداية التفات النقاد صوب المنتج الروائي الكويتي المنجز في مطلع سبعينيات القرن العشرين، فمن خلاله صارت الرواية حديث المفكرين والنقاد، وحققت فيه الرواية الكويتية صعوداً ملحوظاً، وربما كانت الجوائز التي حصدها بعض الروائيين الكويتيين مؤشراً من مؤشرات هذا الحكم، وأيضا صعود وتيرة ترجمات الرواية الكويتية يعتبر مؤشرا ثانياً.

* كاتب كويتي – أستاذ الدراما والنقد.

** قدمت هذه الدراسة بتكليف من رابطة الأدباء الكويتيين ضمن الملتقى العربي الصيني الأول بالقاهرة بتاريخ 21 يونيو 2018.

ولعل أهم ما يمكننا الحديث عنه هنا في جانب الرواية الكويتية هو عنايتها بالقضية ذات البعد الاجتماعي، والذي يتوجه في غالبه صوب الطابع الإنسانية الكوني، انطلاقاً من التأسيس على القضية المحلية، وبالنظر إلى تناولنا للقضية الاجتماعية من حيث كونها خطاب روائي فسنتطرق في توطئتنا هذه للمفهوم الذي نتبناه للخطاب، عطفاً على ما أسس عليه فرديناند دوسوسور في (محاضرات في مادة اللسانيات العامة)[1]، والتي فتحت باب الاشتغال على دراسة فصل اللغة عن حالة التكلم، ومن ذلك انطلقت النظرة للخطاب وباقي الدراسات في بُعدها اللساني، ولكوننا سنعتني هنا بالخطاب الروائي خاصة، فسوف نستحضر جهود ميخائيل باختين، بالتركيز على الممارسة النقدية التي أسس لها، وذلك من خلال مدونة البحث التي اصطفيناها، والتي تتشكل ملامحها من بعض الروايات الكويتية المعاصرة، خاصة تلك التي تحمل في طياتها خطاب له سماته الاجتماعية.

(1) لويك دوبيكير، فهم فرديناند دو سوسور وفقاً لمخطوطاته: مفاهيم فكرية في تطور اللسانيات، ت: ريما بركة، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2015، ص 26 – 30.

اسماعيل فهد اسماعيل

الرواية في الكويت

على عادتها جاءت الرواية الكويتية متأخرة في المنجز الأدبي شأنها شأن ما حدث في معظم المشاهد الأدبية العربية، فلو قارنا حركة الرواية الكويتية بحركة الشعر أو القصة القصيرة، سنجد أن هذه الأجناس الأدبية عُرفت مطبوعة في عشرينيات القرن الماضي، حتى أن المسرحية الكويتية عرفت منذ منتصف ثلاثينيات القرن الماضي.

يشير الروائي طالب الرفاعي في محاضرة أقيمت في جامعة الكويت

تحت عنوان (لمحة مختصرة عن المشهد الروائي في الكويت) إبريل 2011، على أن رواية (الأم صديق) للأديب فرحان راشد الفرحان تعد أول رواية كويتية، وقد كتبت عام 1948، ثم رواية كتبتها صبيحة المشاري عام 1960 تحت عنوان (قسوة الأقدار)، أما رواية الأستاذ عبدالله خلف (الأم صديق) فقد صدرت عام 1962، وبذلك فهي الرواية الثالثة في تاريخ الكتابة الروائية الكويتية[1].

تاريخياً لا يختلف الدكتور خليفة الوقيان، في كتابه (الثقافة في الكويت - الطبعة السادسة) مع ما ذكره الرفاعي، بيد أنه يثير مسألة مهمة فنية بحتة، تتعلق بتقنيات الكتابة الروائية رغم عدم تبني هذا الرأي صراحة، وينطلق من عدد صفحات رواية (الأم صديق) التي كتبها الفرحان في بضع وخمسين صفحة، الأمر الذي يطرح تساؤلاً حول تصنيف العمل، فهل ما كتبه

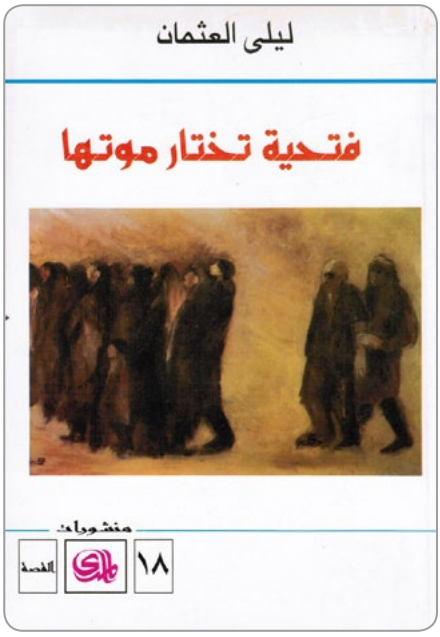

رواية «فتحية تختار موتها» لـ ليلى العثمان

الفرحان رواية أو قصة؟ ولإبراء الذمة فإن الدكتور الوقيان يحيل ذلك الرأي إلى ما أوردته الدكتور نسيمة الغيث في كتابها (من المبدع... إلى النص: دراسات في الأدب والنقد)[2].

انتشرت الرواية الكويتية فيما بعد على يد جيل شبابي متعلم ومثقف في فترة السبعينيات، خاصة مع اتساع رقعة الطباعة والنشر في الكويت والدول العربية، فتصاعدت

(1) طالب الرفاعي، الرواية صوت المجتمع بتلاوينه المختلفة، موقع جريدة الراي: www.alraimedia.com، بتاريخ 2 إبريل 2011.

(2) د. خليفة الوقيان، الثقافة في الكويت: بواكير- اتجاهات- ريادات، الطبعة السادسة، شركة مطبعة الفيصل، الكويت، أكتوبر 2014، ص 365، 366.

وتيرة الأعمال الإبداعية الروائية بعد أقل من عقد على ظهور رواية الأديب عبدالله الخلف في عام 1962، ليصل الإنتاج الروائي سريعاً إلى ما يقرب من أربع عشرة رواية في سبعينيات القرن الماضي، وامتازت هذه الأعمال بشكلها الروائي الجديد، سواء من حيث التقنيات أو من حيث المضامين، من جهة ثانية كان للمرأة حضورها اللافت في الرواية الكويتية، فقد كتبت فاطمة يوسف العلي (وجوه في الزحام) عام 1971، وكتبت نورية السداني روايتين في عام 1972 هما (الحرمان) و (واحة العبور)، وأصدرت ليلى العثمان (فتحية تختار موتها) عام 1977، وكتبت طيبة الإبراهيم في أواخر السبعينيات روايتين (ظلال الحقيقة) و (أشواك الربيع).

شكل الحضور النسائي في الرواية الكويتية في فترة السبعينيات ما نسبته 43 ٪ تقريباً من مجمل المنتج الروائي، مما يؤكد على الحضور الفكري والثقافي في المجتمع الكويتي في تلك الفترة، وفي مثل هذه البيئة يولد وينمو الإبداع الروائي دون أدنى شك، وهذا ما حصل فعلاً فقد تدفقت الإبداعات الروائية واستمرت دون هبوط حتى يومنا هذا.

أما ما يمكن اعتباره أحد أهم المحركات في الفن الروائي، ليس في الكويت فحسب، بل والوطن العربي، هو الروائي القدير إسماعيل فهد إسماعيل، الذي دخل عالم الرواية عبر روايته (كانت السماء زرقاء) عام 1971، وقد تميز عن غيره من كتاب الرواية، ليس بغزارة الإنتاج فحسب، بل بطريقته في الكتابة، بتوجهها غير التقليدي، حتى عُدّ أحد أهم رواد الكتابة الروائية الكويتية، وأحد الفاعلين في نشاطها المعاصر، ويؤكد طالب الرفاعي على أن الفترة الممتدة بين عامي 1973 وحتى عام 1985 شهدت أكثر من رواية لإسماعيل فهد إسماعيل، وكان لها كبير أثر بتكريس حضوره في المشهد كأحد أهم القامات الروائية العربية.

واتصف إنتاج الروائي إسماعيل فهد إسماعيل بسمات ثلاث اعتباراً من صدور روايته الأولى، وهي كالآتي:

1. الكتابة بنكهة روائية جديدة ولافتة على مستوى الشكل واللغة،

بعيداً عن الشكل التقليدي في حضور الراوي العليم للرواية العربية آنذاك.

2. الدفاع عن قضايا الإنسان العربي، بما يؤكد انتمائه العربي وإخلاصه لقضايا الأمة.

3. تحميله في أعماله الروائية تلك النزعة الإنسانية للحرية والحب والصداقة والإخلاص[1].

لقد أسس هؤلاء الرواد الأرضية المعرفية والتقنية لكتابة الرواية في الكويت، فكان حضور الرواية أكثر تدفقاً في سنواتها اللاحقة، وأخذ سحر الرواية يتسلل إلى دوائر أخرى أكثر اتساعاً، وبذلك تجلت أسماء عديدة في تلك الفترات حتى عام 1990، أما التحول الذي طرأ على الرواية الكويتية، كما تأثر المجتمع بأكمله، فكان من جراء الغزو العراقي للكويت في الثاني من أغسطس عام 1990، وقد دام ذلك الكابوس سبعة أشهر حتى انزاحت الغمة في السادس والعشرين من فبراير عام 1991.

لم تكن هذه الحادثة مجرد مرحلة

> انتشرت الرواية الكويتية على يد جيل شبابي متعلم ومثقف في فترة السبعينيات

وتتلاشى، بل أثرت في نفوس أبناء المجتمع الكويتي، ومنهم المبدعون من شعراء وروائيين ومسرحيين وكتاب، فقد تحطمت في دواخلهم مع ذلك الغزو الكثير من المفاهيم التي كانوا يؤمنون بها ويؤمن بها مجتمعهم، وأهمها القضية العربية التي كانت تحتل صدارة عند المبدعين، مما وضعهم في حالة انكفاء على الذات في محاولة للملمة الجراح.

لقد أفرزت فترة ما بعد الغزو نصوصاً تنادي بالعودة إلى الوطن الصغير بعيداً عن الضياع في غياهب الفضاءات الخارجية، فتحول خطاب الرواية الكويتية في معظمه ما بين الواقعية والتوثيقية لأحداث الغزو العراقي، فكانت بعض تلك الروايات تحمل نفساً مأساوياً عالياً بصبغة محلية، مما جعلها تدور في محيط محلي ضيق، ليس قصوراً في تقنيات كتابتها، بل لخصوصية المواضيع

(1) مرجع سابق: طالب الرفاعي.

التي طرحتها، حتى أن بعض عناوين الروايات كانت مباشرة، مثل (ريح الشمال) لفهد الدويري، (جنكيزخان تحت الأبراج) -أي أبراج الكويت- لخضر الخضر، (لهيب الجوار) لناشي القحطاني، (أنا كويتي) لمبارك شافي الهاجري، وتميزت هذه الفترة -رغم ما حملت من أثر نفسي وفكري وعاطفي على مجتمع الروائيين- بإنتاج مهم، هو سباعية روائية تحت عنوان (إحداثيات زمن العزلة) للروائي إسماعيل فهد إسماعيل، وهذا نفس طويل في الرواية لم تعهده الرواية الكويتية والخليجية وحتى العربية من قبل، مما يحسب للتجربة الروائية الكويتية.

ولأن الرواية هي جزء من ثقافة المجتمع، كما يقول باختين، وهي مكونة من خطاب أو خطابات يدركها المجتمع عبر ذاكرته الجمعية، سواء كانت تلك الخطابات تاريخية أو معاصرة، فإن ما أُنتج في فترة التسعينات والألفين هو إفراز طبيعي للحالة العامة المسيطرة على عقول الكتاب، والروائي يعتبر منتجاً للمعرفة ومحاوراً لثقافته ولمجتمعه، وبالتالي

د. خليفة الوقيان

فإن إنتاجه لا يمكن أن يكون مادة محايدة تتلقفها تلك الأسلوبية التقليدية لتصفها وصفاً لسانياً أو تبرز مدى تفردها التعبيري والمعجمي[1]. إذن لا بد من وجود تلك الصفة الهارمونية بين الشكل والمضمون، فلا يمكن للرواية أن تكون نسقاً أسلوبياً صرفاً دون وجود ذلك المحرك النابع من المحتوى الاجتماعي، وهو ما يدفع الرواية للتقدم بأحداثها ويعمق من خطاب شخوصها.

(1) محمد برادة: مقدمة كتاب ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ت: محمد برادة، الطبعة الأولى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1987، ص 22، 23.

لقد فرضت الواقعية خطابها على الرواية الكويتية بشكل ملحوظ في فترة التسعينيات من القرن الماضي، كما شكلت ملامح الرواية المعاصرة، وهذا لا ينفي تلك المحاولات الجادة التي طرحت تلك الواقعية بأسلوب مبتكر، ويبين الكاتب والروائي طالب الرفاعي أهم سمات ملامح الرواية الكويتية، ومن أهمها تجلي صراع الحراك الاجتماعي بوصفه الموضوع الأكثر تداولاً في الرواية الكويتية، وهذا التجلي يمكن أن يقدم صوراً دالة لمجمل القضايا المحتدمة التي تواجه المجتمع الكويتي الراهن[1].

طالب الرفاعي

الخطاب الاجتماعي في الرواية الكويتية

جدير بالقول هنا، بأن الممارسة الخطابية لا تتضاد مع الممارسة الاجتماعية، فتحليل الخطاب الاجتماعي -باعتباره قطعة من الممارسة الخطابية- يركز على عمليات إنتاج النص وتوزيعه واستهلاكه، وكلها عمليات اجتماعية تتطلب الإحالة إلى أوضاع اقتصادية وسياسية ومؤسسية معينة، وهي التي تولد الخطاب، أما الإنتاج والاستهلاك فإنهما يتميزان من زاوية معينة بطابعهما الاجتماعي المعرفي، وذلك لأنهما يتضمنان عمليات معرفية خاصة بإنتاج النص وتفسيره، وهي التي تقوم على المباني والأعراف الاجتماعية المستوعبة، فلا يمكن إعادة بناء عملية الإنتاج ولا إيضاح أسباب عملية التفسير استناداً على النصوص وحدها دون وجود تلك الخبرات عند المستهلك أو القارئ، وهذا الربط يؤكد على الممارسة

(1) مرجع سابق: طالب الرفاعي.

الخطابية وعمليات إنتاج النص وتوزيعه واستهلاكه وبين النص نفسه[1].

وبلا شك، فإن تلك الممارسات الخطابية الاجتماعية المتعددة في إنتاجها، تعزز بعد حين من قوة الخطاب نفسه، ليتحول من خطاب خاص إلى آخر عام، وهذه الممارسات أيضاً تشكل قوة ضغط على المؤسسة، إذا ما كان الإنتاج واعياً بثقافة المستهلك، والخطاب الروائي اليوم يشكل أحد أهم روافد التثقيف والتغيير في المجتمعات المعاصرة المتحضرة، والمجتمع الكويتي أصبح أكثر استهلاكاً للرواية من أي وقت مضى، ويكفي ما نراه من تقدم وإقبال على تلك الروايات الحديثة، وبالتالي فإن هذا التدفق الكبير في إنتاج الرواية واستهلاكها، إذا ما أحسنا الظن في أغلب ما يكتب اليوم، فهو بالتأكيد سيضع بصماتها التأثيرية على المجتمع ولو بعد حين.

ولعل هذه الغزارة في الإنتاج الروائي والتطور في المستوى الفني

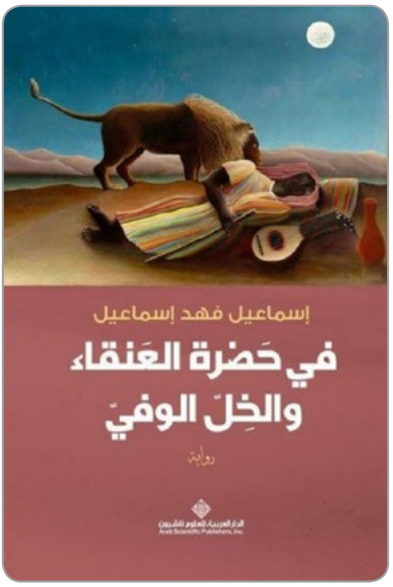

«في حضرة العنقاء والخل الوفي» لـ اسماعيل فهد اسماعيل

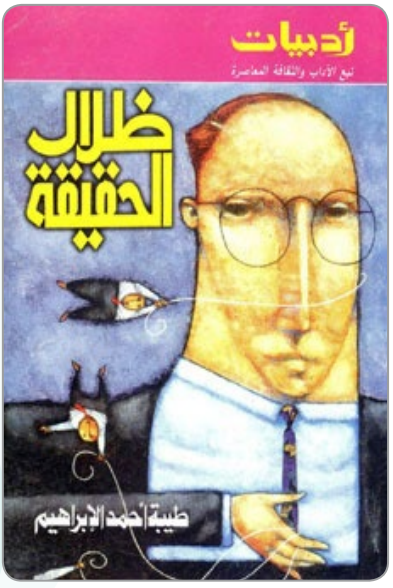

رواية «ظلال الحقيقة» لـ طيبة الإبراهيم

(1) نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ت: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، العدد: 2593، القاهرة، 2015، ص 88.

لقد فرضت الواقعية خطابها على الرواية الكويتية بشكل ملحوظ في فترة التسعينيات من القرن الماضي

تضعان أي باحث في حيرة أمام اختيار النصوص التي تلبي حاجاته البحثية، وبالتالي فإن الاختيار هنا ليس مبني على الأفضلية، وإنما هو انتقاء مرهون بأسباب أخرى فنية متعلقة بالاشتغال البحثي، ومن أهمها الموضوع الاجتماعي الذي يدفع لتقديم الممارسات الخطابية، ومن أبرز هذه القضايا في الكويت اليوم هي قضية الانتماء، خاصة في مجتمع صغير تبرز فيه المحاسن والعيوب أسرع من غيره، كما أن اختيار النماذج هنا، يأتي أيضاً لكاتبين من جيلين مختلفين، فإسماعيل فهد إسماعيل من جيل الرواد، وعبدالله البصيص من جيل الشباب، وهذا يؤكد حضور الخطاب الاجتماعي على مجتمع الروائيين الكويتيين، أما عن الروايات محل الاشتغال هنا، فهما رواية (في حضرة العنقاء والخل الوفي) لإسماعيل فهد إسماعيل عام 2010، ورواية (ذكريات ضالة) لعبدالله البصيص عام 2016، وجدير بالذكر هنا، أن البحث معني بتحليل الخطاب الاجتماعي وليس معنياً بتحليل بنية النص وتقنيات الكتابة في النصوص المختارة.

إن كلتا الروايتين تشتركان بنفس القضية الإنسانية التي ما زالت تؤرق المجتمع، وهي قضية (البدون)، والبدون هم بالمسمى المتعارف عليه عالمياً (عديمو الجنسية)، ورغم تعاقب اللجان الحكومية لحل المشكلة، إلا أن المشكلة ما زالت تنتظر حلاً ناجعاً لأوضاعهم أبناء هذه الفئة، مثل تجنيس المستحقين منهم، وإعطاء إقامة دائمة للبعض الآخر، لكن كلما تأخرت تلك الحلول زادت المشكلة تعقيداً، وهذا يشكل خطراً مجتمعياً يتعلق بأمن البلد والمواطنين والمقيمين الشرعيين على أرضه، وقد يكون هؤلاء عرضة للإغواء في مزالق الإرهاب والمخدرات والانحراف بسبب تعذر الحلول المعيشية والصحية

والتعليمية الجذرية لهم، فعلى سبيل المثال من أبرز معاناة أبناء عديمي الجنسية صعوبة إيجاد وظيفة دون وجود أوراق إثبات شخصية، وهذا يشكل معضلة اجتماعية كبيرة.

إن طرح أي قضية متصلة بالجانب السوسيولوجي في مقال أو دراسة ما؛ لها بلا شك وقعها عند المتلقي، إلا أن طرح نفس القضية عبر سردها فنياً، يكون له سحره التأثيري على المتلقي، فالشخصيات والأحداث أكثر قدرة على شرح القضية وأبعادها، كما أن القضية نفسها تتجلى في مخيلة القارئ، وقد تبقى حاضرة في ذهنه ومؤثرة على قراراته وسير حياته، ولا شيء من المبالغة في هذا، فذلك السحر الروائي يتلقاه القارئ منفرداً بذاته التي تسبح في آفاق عوالم الرواية وشخوصها، وهنا تتداخل تلك الممارسة الخطابية مع الممارسة الاجتماعية، ذلك لأن "الممارسة الخطابية ذات قدرة تكوينية بالأساليب التقليدية والخلاقة، فهي تسهم في إعادة إنتاج المجتمع (الهويات الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية، والنظم المعرفية والعقائدية) على نحو

نورية السداني

ما هو عليه، وهي تسهم أيضاً في تغيير المجتمع"[1].

وهذا ما جاء في كلا الروايتين، فرواية (في حضرة العنقاء والخل الوفي) جاءت محملة بألم ذلك المنسي في مجتمعه، وهو اسم الشخصية الرئيسة في الرواية، حيث يسرد (منسي بن أبيه) لابنته (زينب) والتي لم يرها قط، ما حدث معه في رسالة طويلة، يشرح خلالها كيف التقى والدتها (نجود) وتزوجها رغم رفض أخيها (سعود) الذي سيطر على

(1) المرجع نفسه: ص 88.

العائلة بعد وفاة جدها، والرفض كان بسبب عدم التكافؤ لأن المنسي من أبناء فئة البدون ووالدتها كويتية، وفي سبيل ذلك يحاول سعود بشتى الطرق إيذاء المنسي، سواء جسدياً أو من خلال إبلاغ السلطات بأنه كان متعاوناً مع الجيش العراقي أثناء الاحتلال، مما سبب له ضرراً نفسياً كبيراً، وأما الباعث للأمل في نفس المنسي فكان تدخل الخلان الأوفياء من أصدقاء دربه من الكويتيين ووقوفهم معه، حيث شهدوا أمام السلطات الأمنية بأنه لم يكن خائناً للكويت، بل كان يساعدهم أثناء الاحتلال، وكان جزءاً من المقاومة، وتنتهي الرواية ومازال المنسي منسياً في مجتمع يتبنى بعض من أفراده وجود ذلك الغول الاجتماعي.

أما رواية (ذكريات ضالة) لعبد الله البصيص، فتدور أحداثها حول شخصية (المعذب) صاحب القصة، والذي حمل اسم سلمان في الرواية، وقد تعرف سلمان على مفهوم البدون وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره، عندما علم بأن شاكر والد صديقة حميد وحب الطفولة صفاء من فئة البدون، إلا أن هذا لم يؤثر على علاقته بهما، إلى أن تنقطع الصلة بينهم بعد هروب كلا العائلتين أثناء الغزو العراقي للكويت، وبهذا تنقطع ذكريات الطفولة، وبعد التحرير يعود سلمان ليبحث عن أصدقائه لكن دون جدوى، وتمضي الأيام ويلتحق بكلية الشرطة ليصبح ضابط مباحث، وبسبب تأثير بعض زملائه عليه في العمل يتحول سلمان إلى ضابط مباحث متوحش، لا يعرف قلبه الرحمة، يبطش بكل من يقع تحت يده، كما تتحول حياته البسيطة إلى حياة إنسان منغمس في اللذات المحرمة وغير المشروعة، المفارقة هنا أنه هو نفسه من يتصدى لمكافحتها في مجتمعه، وفي إحدى لياليه الحمراء يأتيه اتصال من أحد مساعديه يقطع عليه خلوته بصديقته، وكان الاتصال يحمل خبر إلقاء القبض على اللص المحترف والملقب بالمنشار، والمنشار هذا أشقى حياة سلمان وحياة رجال الأمن خلال السنوات الخمس الماضية، وبعد وصوله إلى المخفر وما إن يبدأ في

ممارسة هواية التعذيب مع المنشار حتى يكتشف أن ذلك السارق المحترف هو صديقه البدون حميد شاكر.

يصعق سلمان من هذا التحول الذي أصاب حميد، فقد كان مثالاً للطالب المجتهد وصاحب الأخلاق الحميدة، حميد الذي أنقذ سلمان مرتين، المرة الأولى، أنقذه من يد المتنمرين في المدرسة، والمرة أخرى عندما أخرجه من بين القصف وطلقات النار عندما اشتبكت قوات الاحتلال والمقاومة بالقرب من شارعهم، هذه الصدمة لسلمان مثلت ثمالة على ثمالة الخمرة الذي لم يذهب مفعولها بالكامل بعد.

يقرر سلمان وبسرعة رد الجميل لحميد، ورد الجميل يأتي على كل من كان سبباً في تغيير شخصيته، وتحويله إلى مسخ مجرد من المشاعر، فيقوم بالانتقام من آلات التعذيب البشرية وهما مساعداه، وبالفعل يفلح في إخراج حميد من المخفر، إلا أن حميد يختفي بمجرد خروجه من المخفر أثناء عودة سلمان

ليلى العثمان

لجلب المفاتيح من الداخل، وقبل أن يغادر سلمان مواقف المخفر يشاهد مسؤوله المباشر، والمسؤول يشكل نقطة التحول الأولى في حياة سلمان السلبية، فيهم بالانتقام منه أيضاً ويدهسه بسيارته، وبعدها ينطلق فاراً إلى المجهول، يقوده التفكير في الانتحار، وأثناء التفكير يتعرض لحادث قوي، يصبح بعده مقعداً مدى الحياة.

إن الخطاب الروائي الاجتماعي الذي تتبناه الراويتان يتجه إلى تسليط الضوء على الاختلال الاجتماعي في

المجتمع الكويتي، ويربط هذا الاختلال بأصل المشكلة وهي البدون، تلك القنبلة التي تفجر بعض منها بعد الغزو العراقي، حيث أخذت الدولة قرارات باستبعاد الكثيرين منهم من العمل في المؤسسات الحكومية بعد أن تبين أن هناك البعض من البدون تعاونوا مع قوات الاحتلال، وكان بعضهم في الأصل يعمل في الجيش والاستخبارات العراقية، واليوم تبرز مشكلة البدون مع كثرة المشكلات والقضايا المتعلقة بالكثيرين منهم، وهذا الاختلال الاجتماعي لا يطال تلك الفئة وحدها بل يصل أذاه إلى جميع شرائح المجتمع، وما حصل للمنسي بن أبيه وحميد المنشار، هي نماذج توضح كيف يمكن للمجتمع بضغطه على أحد مكوناته أن يحول الإنسان إلى اتخاذ السلبية طريقاً للعيش، فالإنسان اليائس من الحياة، والعاجز عن توفير المسكن ولقمة العيش في مجتمع مترف وبلد غني، يمكن اعتباره قنبلة موقوتة قد تنفجر في أي لحظة ضعف.

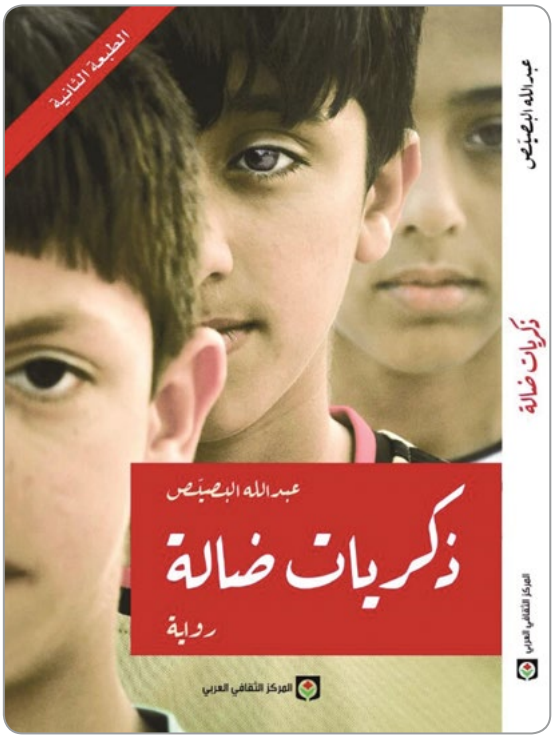

رواية «ذكريات ضالة» لـ عبد الله البصيص

العنوان وفحوى الخطاب

العنوان في العمل الأدبي العتبة الأولى التي تمارس خطاباً مؤثراً في المتلقي وتحدث صدمة أولى يتوخاها الكاتب عن قصد أو دون قصد، وبالتالي فالعنوان هو أول تصديرات الخطاب "من حيث هو يضم النص الواسع في حالة اختزالٍ وكمونٍ كبيرين، ويختزل فيه بنيته أو دلالته أو كليهما في آن. وقد يضم العنوان

الهدف من العمل بذاته، أو خاتمة القصة وحل العقدة فيها"[1]. وبالعودة إلى نموذج إسماعيل فهد إسماعيل نجد عنواناً مألوفاً لروايته، هو جزء مما قاله الشاعر صفي الدين الحلي:

لما رأيتُ بني الزمان وما بهم
خل وفي، للشدائد أصطفي
أيقنتُ أن المستحيل ثلاثة
الغول والعنقاء والخل الوفي

وهنا يترك الكاتب المستحيل الأول لذهنية القارئ، وهي أشبه بلعبة البحث عن ذلك الغول، كما أن عدم ذكر ذلك الغول يأتي من ذلك الإلغاء الضمني للذي ضغط على (المنسي)، وهو غول العادات الاجتماعية التي هي سبب كل مشكلاته، وبذلك يحقق العنوان دلالاته التاريخية، والخطابية، كما يحيل إلى مفهوم الخل الوفي الذي يصعب إيجاده اليوم في المجتمعات البراغماتية.

أما رواية (ذكريات ضالة) فيذكر الكاتب بأن (المعذب) وهو صاحب القصة، هو من اختار العنوان بعد أن أرسل له سبعة عنوانين، واختار صاحب القصة عنوان (ذكريات ضالة) والعناوين التي أرسلها الكاتب لصاحب القصة هي: (المعذب، كلاب الجنان الضالة، كلب ضال، حياة ضالة، ذكريات ضالة، سيد الكلاب، كلب ضال يهتدي) وهذه العناوين إنما هي طرح مراوغ للفت النظر حول مفهوم اللفظ ذاته (ضالة) والضالة بطبيعة الحال تحيل إلى التركيبة اللغوية المعروفة بالكلاب الضالة، وهنا توجه أصابع الاتهام فيما حصل لسلمان وحميد إلى كل الكلاب الضالة التي ساهمت في تحويلهم إلى أعداء للمجتمع، فسلمان ضابط فاسد، وحميد بُدون سارق.

الشخصيات وديناميكية الخطاب

لعلنا هنا نركز على تلك الشخصيات الرئيسة التي جاءت في الروايتين، وذلك بغرض تبيان الممارسات الخطابية التي قدمتها كل شخصية، وانطلاقاً من دلالة اسمي بطلي الروايتين، فالمنسي هو مغلوب

(1) بسام قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، الأردن، 2001، ص 39.

على أمره، وهو منسي اجتماعي، وشخصيته في أحيان كثيرة لا تحرك أو تدفع الأحداث بل هو يدور في فلك الأحداث، حيث يكون منسياً في مرمى ضربات الآخرين، ولأنه مسالم لا يرجو إلا العيش بحب، فلم تكن له ردة فعل قوية، ولأنه من فئة البدون فهذا طبع على شخصية الابتعاد قدر الإمكان عن الوقوع بأية مشكلة.

وتأتي شخصية المعذب (سلمان) هنا ضمن ذلك النظام المركب للشخصية، أو كما يطلق عليها الشخصية المركبة، وهي تلك الشخصية التي تحمل صفتين متناقضتين، فسلمان رجل مباحث ويحارب الجريمة، إلا أنه يبيح له ولمساعديه ارتكاب أبشع الجرائم بحق المذنبين بحجة أنهم فاسدون ولا ضير من الاقتصاص منهم، وهذا تناقض كبير مصدره ذلك الخلل في فهم المنظومة الاجتماعية، فكيف يكون هؤلاء حماة الأمن؟ وحميد البدون الذي كان مثالاً يحتذي به في المدرسة، هو المنشار في النهاية، وكما كان متفوقاً في الدراسة والأخلاق حوله المجتمع إلى متفوق بالجريمة واللصوصية، وهذه الخطابات التي

عبد الله البصيص

تصدرها الشخصيات عبر أبعادها وتحولاتها، إنما هي المحرك لتلك الممارسات الخطابية في الرواية.

إن صورة شخصية البدون في رواية (في حضرة العنقاء والخل الوفي) لا تختلف كثيراً عن صورتها في (ذكريات ضالة) فكلا الشخصيتين تعطي نفس السمات، وهي الأخلاق وحب الآخرين، أي أن أبناء هذه الفئة لا يولدون أشراراً، وإذا تحول الواحد منهم فإن المجتمع مسؤول عن هذا التحول السلوكي في طبيعتهم، ولأن المنسي كان شاباً واعياً أثناء الغزو،

كان أكثر قدرة على امتصاص ردود الأفعال اتجاهه بعد الغزو، وما ساعده على ذلك هو وجود الأصدقاء من الكويتيين الذين يعتبرهم المنسي صوراً تحاكي ذلك الخل الوفي، أما حميد فقد كان في العاشرة من عمره أثناء الغزو، وبفقد والده الجندي في الجيش الكويتي، وبسبب القرارات الحكومية التي صدرت بعد الغزو، والتي لم تكن في صالح أبناء هذه الفئة، عاش حميد حياة قاسية، ولقمة العيش ودفع الإيجار كانا الدافع الرئيس في تحوله إلى ذلك اللص المحترف.

خلاصة:

مما لا شك فيه، أن مثل هذه الممارسات الخطابية الروائية تسلط الضوء على تلك الممارسات الاجتماعية التي من شأنها أن تضر المجتمع في المستقبل، ومن أهمها قضية عديمي الجنسية، وهذا ما اشترك في طرحه روائياً كل من إسماعيل فهد إسماعيل وعبدالله البصيص، فإذا تم نسيان ابن أبيه، فإننا سنواجه الكثير من المناشير في المستقبل، كما أن بعض الصداقات مع الكويتيين والتي يحظي بها بعض أبناء البدون لن تكون حلاً ناجعاً لقضيتهم.

إن الخطاب الروائي في الكويت والوطن العربي قد لا يحتل مكانه في الصدارة من حيث قوة التأثير، إلا أننا نعول على ذلك الاستهلاك الكبير للرواية المعاصرة، كما نعول على وعي الروائيين أنفسهم في تقديم الصورة الفنية والفكرية التي تساعد على التأثير في بث تلك الرسائل الاجتماعية الإيجابية، والتي بدورها يمكن أن تساهم في تغيير وتحويل الممارسات الاجتماعية لتكون أكثر إنسانية وعقلانية.

حجاجيّة الفصل والوصل في خطاب المتنبي الحجاجي

من خلال كتاب: «شرح المشكل من شعر المتنبي لابن سيده»

بقلم: د. محمد سعيد محفوظ عبد الله*

لا جرم أن هذه الدراسة تسعى جهدها إلى إذكاء التواشج بين البلاغة والألسنية، وتهدف -فيما تهدف- إلى تنويع سبل هذا التعالق، متجاوزة المقاربة اللغوية التداولية؛ لأنها متجذرة بطبيعة الحال، إذ إن الألسنية وسائر المناهج الحديثة، التي اصطنعها نقاد الحداثوية استولدوها من رحم البلاغة الأم،ولما كان الحجاج سبيله الفكر والعقل وشيئا من العاطفة ولما كان قوامه الأقيسة المنطقية من استدلال وقياس ومسلمات ومبادىء برهانية لذا كان لا بد مما ليس منه بد أن تيمم الدرا سة وجهها شطر المتنبي؛ لغلبة الذهنية في شعره واعتماده الفكر الفلسفي المنطقى والمذاهب الفكرية بعامة، هذا أولاً.

ولما يتميز سفره من وفرة المناظرات والمحاورات ونقل للمشاهد الحجاجية وقيام المتنبي بالرد على أصحابها وامتلاء شعره بذاك، هذا ثانيًا، واصطناعه كل ما من شأنه أن يفرز حجاجا يجابه ما كان يتعمده من غريب ونادر اللغة، هذا ثالثًا، والانحراف بشعره عن مساراته الطبيعية، واكتظاظه برؤى

* أكاديمي وباحث مصري.

موغلة غاية التوغل في مسارب العقلانية الجافة، وقصده لذلك قصدًا، هذا رابعًا؛ بحيث يمكن القول ونحن مطمئنون إنه إنْ وجد شاعر يتقاطع شعره مع النظرية الحجاجية فثم المتنبي، الذي كان مغرما بذلك كله، إن شعره حجاج والحركة النقدية المثارة حول شعره حجاج، هذا خامسًا، وحياته ذاتها حجاج، الطَّموحة المتمردة النافرة لواقعها الوضيع، هذا سادسًا؛ علاوةً على أن المتنبي باهر في استيلاد شعره حججًا تلو حجج ومما يزيد الأمر حجاجًا، أننا لن نكتفي بأشعاره التي لم تثر لغطا ولجبا - وإن كانت في غالبيتها تثير مثل ذلك- لذا فإننا قد كرسنا هذه الدراسة لتدور حول شعره الذي أثار شغبًا ونصبًا وصخبًا كما هو مبين بالوسم «شرح المشكل من شعر المتنبي والذي تولاه ابن سيده»: فهو ليس شرحًا لكل أبيات الديوان؛ بيد أنه قد اقتصر فيه على ما كان سببًا للخصومة، ومثارًا للجدال والجدل،مما أشكل من أبيات المتنبي وما استغلق من معانيه،وما استبهم من تراكيبه، وجميع أولئك، بلا جرم، ليؤسس شرعنة حجاجية.

لمبحث الفصل والوصل دور حجاجي -أي دور- وليس أدل على تثمين هذا الدور من جعله حدًا للبلاغة «لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة»[1]، ولما كان الغموض يلف موضوع الفصل والوصل، ولما كان الغموض يحتضن الحجاج، كان بالتبعية وفقًا للقياس الأرسطي أن الفصل والوصل حجاج. ومن المقطوع به أن استراتيجية الفصل والوصل تنطلق من معطيات الخطاب التداولي بين طرفي العملية

(1) عبد القاهر الجُرجانى -دلائل الإعجاز- مصدر سابق- ص230

الحجاجية؛ فالمتكلم الذي يمتلك أدوات التواصل يستقرئ انعكاس ذلك على المتلقي، الذي يكون حضوره قويًا وفعالاً بل ومؤثرًا، وما الفصل والوصل إلا استجابة لجهد المتلقي في مدى الإذعان والقبول أو التمرد والرفض؛ فأيًان تولدت قناعة المتكلم بحركية حجاجه وتأثيرها في قلب ولب المتلقي؛ فلا بأس إذن من الفصل وعدم الاستطراد والإسهاب؛ فذلك لن يدفع بالحجاج البلاغي؛ بل ربما تسرَّب الملل والضجر لدى المتلقي؛ وربما أيضًا قاده الاستطراد إلى تفريعات وزوائد ذهبت بانتباهه وأغارت على تركيزه فاغتالته اغتيالاً؛ وجارت على نجاعة تداولية الأفعال الكلامية؛ جهدًا ووقتًا؛ وبددت العملية الحجاجية برمتها.وعلى نقيض ذاك تمامًا؛ فأيًان استبطن المتكلم عدم بلوغ حجاجه لدن الآخر وعدم تمكنه؛ وبالتالي عدم تحقق مأربه التداولي؛ فلا ضير عليه إذن من الاسترسال والإسهاب قدر حاجة سياقات الحال، وسياقات المتلقي، ولا تزال (الواو) الرابطة تدفع بالحجة تلو الأخرى متصلة متواترة متتابعة؛ فالأولى بسبب من الثانية، والثانية نتيجة وأثر

تالٍ للأولى؛ ويستولد ذاك الموقف (الغموض)؛ إذ على المتكلم أن يضحي حاضر الذهن يقظ الحدس منتبه الفكر سريع البديهة في استجلاب الحجج الموائمة للطرح المترابطة النسق ذات التراتبية المنطقية المتماسكة فكريًّا، كل أولئك كانت (الواو) عنه مسؤولاً. إن الربط بين الوحدات داخل الملفوظ الحجاجي الواحد، إنما يشرع فيه لزيادة النتيجة الكامنة وراء الحجاج، وشحن الكلام ليؤدي وظيفة تتناسق مع قصدية المُحاجج؛ فالعمل الحجاجي عبارة عن فونيمات تسهم في زيادة الطاقة الحجاجية.إن أثر الوصل «في إنجاز الأفعال الكلامية في القول الذي يتضمن الشرط والجزاء؛ لأن الوصول إلى الغرض المتضمن في القول (الشرط والجزاء) يكون مجال النظر في القول على أنه بناء متضام وذو نظم متعلقة بالقصد، ولا يمكن النظر إلى جزء منه دون الآخر»[1] إن نجاح العملية الحجاجية وحضور حظوظها حيث الوصل لموكول جملة وتفصيلاً إلى (الواو)؛ فعليها العبء الأكبر في ذلك «(الواو) من أهم الروابط الحجاجية؛ إذ لا يقتصر دورها على مجرد الجمع بين الحجج فحسب؛ بل تعمل على تقوية الحجج بعضا ببعض لتحقيق النتيجة المرجوة؛ وهي الروابط الحجاجية المدعمة للحجج المتساوقة»[2] إن مركزية القبول والرفض مأتى من مركزية (الواو) الحجاجية؛ إنها تضطلع بدور حيوي ديناميكي في تآلف القضايا التركيبية، كما تضطلع بدورها في تآلف قلوب طرفي الحجاج. وعلى ذلك فليس عمل (الواو) قائمًا على رص الكلم رصًا غير أنه تستحيل معه العتبات الحجاجية بتراتبية إيديولوجية على مسافة واحدة من المتكلم والمتلقي، تمتاح وفق آلياتها أية مثالب حجاجية قد يبديها المتلقي، وهذا من شأنه عرقلة الخطاب التواصلي، لقد راكمت (الواو) القضايا الحوارية.

مهما يكن من أمر، فيجب أن ينظر للوصل من زاوية الإطناب؛ حيث أتت (الواو) بدفقات فكرية وانسيالات

(1) الباحثة/ثقبايت حامد – القضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز –رسالة ماجستير –جامعة تيزى وزو– الجزائر 2012م ص145

(2) الباحث/عيسى تومى –الأبعاد التداولية في الخطاب القرآنى –رسالة ماجستير–جامعة محمد خيضر –بسكرة– الجزائر 2015م ص248

رؤيوية، وقبع وراءها جيش لجب من المتتابعات الهندسية البرهانية، على أية حال أنيط (للواو) إسعاف المتكلم قبالة المتلقي ليظفر بأكبر قدر ممكن من التجاوب والتفاعل، والملاحظ أيضًا أن (الواو) آن ذاك التحيين تقوم بتطويع الحجج وتهذيبها من كل تنافر وتصهرها في بوتقة التلاحم والانسجام، وما كان يحسبه المتلقي بعيدًا غدا قريب التناول والمأخذ، لطيف العبارة حبك التركيب سبك البنية؛ بما أسبغته (الواو) عليه من فضلها، قولاً واحدًا؛ فإن الوصل يُلتمس فيه قاعدة (الضم) «ضم الفكرة إلى الفكرة وإن تباينتا، وجعل الواحدة بسبب من الأخرى للوصول إلى نتيجة واحدة من ذلك على سبيل المثال ما يسميه (بيرلمان) (الوصل المؤسس على بنية الواقع مثل:الحجج القائمة على الوصل السببى ومثل حجة السلطة، وما يسميه الوصل المؤسس للواقع، مثل الاستعارة والتمثيل»[1] ومن المحقق أن ليست كل القضايا التي تقوم (الواو) بإيجاد التعالق بينها، ليس التسليم بصحة مضمونها مشكوك فيه؛ فبعضها يكون مقطوع بوجاهته حجاجيًّا والبعض الآخر تعمل فيه (الواو) على تنقيحه من أدران الضعف والشك، ولا تزال به ترقيه تدريجيًّا حتى تصل به إلى اليقينية بالكاد قياسًا إلى السالف ذكره، والمتكلم ينتخب أفضل السبل إلى ذلك ويختبر أعجمها عودًا. إن في الحجج القائمة على الوصل «يُربط بين أحكام مسلَّم بها وأحكام يسعى الخطاب إلى تأسيسها، وجعلها مقبولة ومسلمًا بها، وذلك يجعل الأحكام المسلَّم بها والأحكام غير المسلَّم بها عناصر تنتمي إلى كل واحد يجمع بينها بحيث لا يمكن التسليم بأحدها دون أن يسلم بالآخر؛ من هنا جاء وصفها بكونها حججًا اتصالية أو قائمة على الوصل، إن طرائق الوصل في الحجاج تعتمد العناصر المتباينة فتدمج أحدهما في الآخر وتجعل أحدهما بسبيل من الآخر»[2] ويُناط إلى الوصل باعتباره قضية منطقية أو مسلمة رياضية

(1) د/ عبد الله صولة – الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال «مصنف في الحجاج» البلاغة الجديدة ضمن مشروع حمّادى صمّود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم –كلية الآداب – منوبة – تونس 1998م– ص76

(2) المصدر نفسه –ص211

بامتياز؛ إذ تعتمد المسلمات الثلاث:

- **المقدمة**
- **الرابطة**
- **النتيجة**

ولا شك أن الجانب الأدبي يميز الوصل؛ حيث التسامح المفرط في التكرار والإعادة والزيادة والترادف والكثرة الكاثرة للجمل والتوالي.. وهكذا، بينا الفصل يطل الجانب العلمي برأسه؛ حيث الدقة والضبط والإيجاز والتركيز والحد بين قضية وأخرى؛ فالعاطفية سمة الوصل، والذهنية سمة الفصل، وبهذا يغدو الفصل والوصل ترهين: الإمتاع والإقناع.

وكما المعروف فالفصل إنْ هو إلا علاقة «منطقية تتمثل في تكوين قضية مركبة انطلاقًا من قضيتين بسيطتين بواسطة (الواو) الرابطة»[1] ولمّا كان الأمر كذلك؛ فإن علاقات التعدية الحجاجية، ولا سيما (التضمين)، عماد ولب الوصل؛ بما تحويه في جنباتها من سببية ومسببية «حيث يعمد المرسل إلى الربط بين أحداث متتابعة مثل الربط بما يمكن أن يكون المقدمة والنتيجة فتصبح النتيجة مقدمة لنتيجة أخرى»[2] ولا يخلو الوصل البتة من لمحة جمالية تنضاف -كما بينا- إلى بديهيات الحجاج البلاغي؛ إذ إن «علاقات الملامح اللغوية التي يتضمنها نص أدبي متشابكة فيما بينها وذات درجة عالية من التراتيب والتعالق، وهي علاقات ذات طابع إيقاعي صوتي تؤسس لأعراف النظم والإيقاع من جانب، وذات طابع مرتبط بالأبنية الدلالية المجازية ذات سمات انحرافية ودلالية من جانب آخر»[3] إن سمة الترابط لتنتظم العملية الحجاجية بدءًا وانتهاءً؛ إذ تظل المقطوعة الشعرية «خطابًا مترابط الأجزاء، وتتابع الأفكار يظل خطاطة شفافة تحت خيوط الانقطاع»[4]؛ بل ينظر إلى الخطاب باعتباره «الوصل الممتد»[5] ويبدو لنا أن الوصل بهذه الكيفية، وبذا التوالي المتسارع من

(1) د. عبد الهادى بن ظافر الشهرى – استراتيجية الخطاب – مقاربة لغوية تداولية – مصدر سابق – ص477

(2) المصدر نفسه ص480

(3) د. صلاح فضل – بلاغة الخطاب وعلم النص – ط/مكتبة لبنان – بيروت 1999م ص223

(4) جان كوهن – بنية اللغة الشعرية – ترجمة د. محمد الول – د. محمد العمرى – ط/المغرب الدار البيضاء– ط/دار توبقال 1986 م – ص171

(5) المصدر نفسه ص172

القضايا؛ إنما يبغي إلى إسكات ما يعتور المتلقي مما قد يعنّ له من بعض القصور في حجاجية المتكلم؛ فيرى -وقد هاله- هذا السيل المتدفق من الأدلة والمبرهنات على غير المتوقع؛ محدثة له نوعًا من المفاجأة الحجاجية فتجبره على الصمت وتلزمه السكوت إثر مداهمة المتكلم له بتلك اللا نهائية من ملفوظ القول ذي التراتبية المنطقية.

وإذا كان التضام عقيدة الوصل، وإذا كان التواشج دأبه والتعالق ديدنه؛ فالوضع بالنسبة للفصل على غير ذات الجهة تمامًا؛ حيث: الحد والقطع «وأما طرائق الفصل فبالعكس؛ إذ يعمد فيها إلى ما هو كلٌ فيَحدث فيه فصل بين حقيقته وظاهره، كأن نقول:هذا الرجل ليس رجلاً أو ما هكذا يكون العدل (في الحديث عن وضع ما)»[1] أكبر الظن أن قضية الفصل والوصل إنْ هي إلا صدى لما تنهض عليه البلاغة (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) فبلاغة الكلام «تكمن في مطابقته مقتضى الحال، ومقتضى الحال مختلف، ومقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام التنكير يباين مقام التعريف ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الفصل يباين مقام الوصل»[2] وعلى ذاك المنوال جاءت أبيات المتنبي، يؤسس محور الفصل والوصل فيها لابتناء حجاجي، ولا أروع، وهذه طائفة من ذلك:

رَمَاني خِسَاسُ النَّاس مِنْ صَائِب اسْتِه
وآخر قطنٌ من يديه الْجَنَادِلُ

«يذهب إلى أن عدوه ضدٌ له. هُو جَمُّ الفضائل، وعدوه جَمُّ النقائص والرذائل، ولذلك وقع بينهما التنافر، لأن النِّد مُحارب لضده، والشكل مُسالِم لِشَكله فهو يقول: لايعاديني إلا ناقصٌ لجرى العادة بمعاداة ذي النقص لذي الفضل. فإذا عابَني - والإجماعُ قد وقع على فَضلي - فهو لا محالة ناقص، وقوله: (مِن صائب استِه، وآخر قُطن) أراد من بين صائب يرميه وآخر هذه صفته، أي إنه ضعيف يُعدِي ضعفُه الجَنْدل فيضعف، حتى لايُؤثِّر كما لا يؤثر القطن إذا رُمِيَ به.. وخص ذكر استه من بين سائر الأعضاء لوجهين: أحدهما: قصدُ الاستخفاف به في

(1) د. عبد الله صولة - الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته - مصدر سابق - ص 219

(2) الخطيب القزويني - الإيضاح في علوم البلاغة - مصدر سابق - ص11

ذكر ذلك منه، والآخر أن هذا الناقص المتنقِّص لي مغلوب مهزوم. والمهزوم لا يقع سلاحه إلا على مايلي ظهره، فخص هذا العضو للأمرين جميعاً.

والأجودُ عندي أنه إنما قصد الاستخفاف، والشّتْم، والسَّب بلك كثير. ولذلك سميت الاست السَّبَّو والسَّب

ومن جاهلٍ بي وَهْوَ يَجْهلُ جَهْلَه
وَيَجْهلُ عِلْمي أَنَّهُ بِيَ جَاهِلُ
وَيَجْهَلُ أبي مالك الأرْضِ مُعْسِرٌ
وَأَنِّي على ظهر السِّماكين رَاجلُ

ومن جاهل: معطوف على (صائب استه). أي إنه قد اشتمل بالجهل وَلاَ يَعَلَمُ أنه جاهل، بالغ في استجهاله، فلم يُبق له أثراً من العلم»[1] لقد وصل المتنبي ههنا؛ إذ الوصل هو ما يتيح له دفقات حجاجية لا حد لها؛ دفاعًا عن ذاته؛ وانتقاصًا من عدوه؛ فهو جاهل، ضعيف أفن، لا يمثل عند اللّه وزن بعوضة، ولولا إحساسه بهذه الضآلة والضعة، ما عاداه، وما خاصمه. وصل المتنبي؛ تعدادًا لمآثره وإكثارًا لمفاخره؛ وإسهابًا لمناقبه، وفي ذات الوقت إحصاءً لمثالب وثُلم عدوه؛ انتظم في الوصل النقيضان؛ لاستقرار حجة المتكلم؛ إذ

(1) ابن سيده – شرح المشكل من شعر المتنبي – مصدر سابق – ص46–48

بالنقيض تقوى الحجج؛ وتبدو معها قوة منطقية المدعي؛ إذ يرينا وهْي حجج الآخر، المخاصم المنافر، والمتلقي حتمًا وهو في استقراء كُلٍ يجنح الجنوح كله للمتكلم، الذي أضفي عليه كل الكمال والجمال، وفي نفس اللحظة أسقط على الآخر كل شائبة ومنقصة؛ لقد أبدى الوصل ثمّ منطقية منضبطة لا تقبل بأية حالٍ من الأحوال إلا التسليم إلا الإذعان، وأبدى الوصل تعاطفًا إلى جانب المتكلم، وأبدى الوصل أيضًا مع كل هذا اندفاعًا شعوريًا وحماسًا استحوذ المتلقي بالكلية؛ بحيث لم يجد فكاكًا ولا بدًا من إطاعته ومجاوبته. وهذا الدرب من مواضع الفصل يسمى (التوسط بين الكمالين) حيث اتفقت الجملتان خبرًا ولفظًا ومعنى، أصَّلتها المناسبة بينهما فكان الوصل الوجوبي لا محالة.

وعلى هذه الشاكلة، يأتي هذا الوصل:

إذا تَرَحَّلْتَ عن قوم وقدْ قدرُوا
ألا تُفارقهُم فَالرّاحِلُون هُم

«أي إذا قدرُوا على إغنائي عن مُفارقتهم، ثم اضطروني إلى فراقهم (فُهمُ) المخلُّون بي حقيقة. (وقد قدرُوا): جملة في موضع الحال. وجاز أن يكون حالاً من قوم، وإن كانوا نكرة، لأن فيه معنى العموم، ولولا هذه (الواو)، لكان أولى من ذلك أن تكون الجملة في موضع الصفة للنكرة. فأما مع (الواو) فلا يكون، لأن الصفة والموصوف كالشيء الواحد. فإذا عطفت الصفة على الموصوف، فكأنك عطفت بعض الاسم على بعض، وهذا مالا يسوغ»[1]. لقد أجلى لنا المتنبي الأمر على

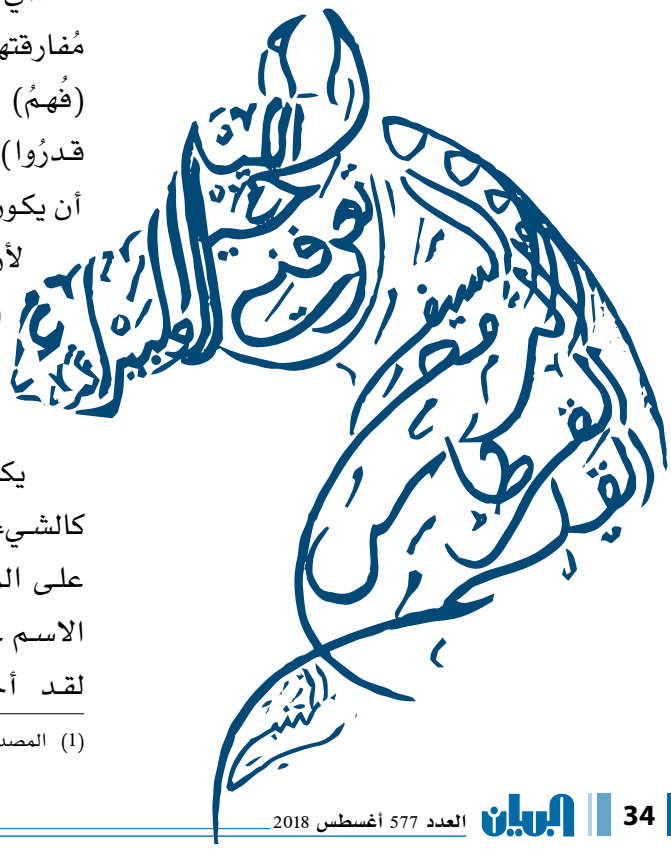

(1) المصدر نفسه – ص199–200

حقيقته؛ حين مغادرته سيف الدولة؛ لئلا يتبادر إلى ذهن المتلقي أنه لا يفي لخلانه ولا يقدر للصحبة قدرها، وأنه ناكث العهد، وأن مثله لا يُجالس ولا يُتخذ خليلاً؛ إذ لا أمن ولا أمان، ولا خير منه يُرجى، ولا نفع منه يُهدى وتنمحي عاطفية التأثير لدى المتلقي، ويصد عنه وجدانيًا صدودًا، مما يستتبع عدم نجاعة حجاجه إيديولوجيًا ومنطقيًا. أبدى المتكلم رغبة الآخرين في إقصائه وإبعاده عن عمد بفعالهم ومضايقته وحشد ما استطاعوا من الحيل والمكائد والسعي به لدى سيف الدولة، الذي أصغى لهم واستجاب لحسدهم وإحنهم، فهم هم الراحلون لا هو. إنه يؤصل لتداولية بليغة، مؤداها عدم الانصياع وراء ظاهر الأمور، فالمعاني الثاوية خلف (الواو) هي ما تدفع بمنطقية الحجاج. ولا تزال (الواو) بالخطاب التداولي تتدرج معه وتقارب وتماثل وتُدمج وتُقصي كل ما من شأنه الجور على نسقية البنى ومن ثمَّ الحجج، وهي بسبيل ذلك تسعى صرفيًا وصوتيًا ونحويًا ودلاليًا وإعرابيًا لكي تتحقق المواءمة وتتأكد المناسبة وتتناتج القناعة، وقد ثبت ذلك، من خلال تطويع إعراب جملة (وقد قدروا ألا تفارقهم) فكما أبان ابن سيده أنها في محل نصب حال ولا يمكن أن تكون صفة لأنها لو كانت كذلك لما استقام المعنى؛ لأنه لا يصح عطف بعض الاسم على بعض، بعطف الصفة على الموصوف؛ فهما كالشيء الواحد؛ وإذا كان هذا إعرابيا محالاً فدلاليًا أيضًا فالكلام كما لا يستوي مبنى، كذا لا يستوي معنى، وفي حالنا هذه لا يمكن أن يتساوق معنًى؛ فهؤلاء القوم أبوا إلا أن يفارقهم، وهو قد أبى إلا أن يرافقهم، أظن ظنًا أن المتلقي لن يجد بدًا إلا موافقة المتكلم فيما يقول وينبي.

ومن قوله:

يُباعدن حبا يجتمعن وَوَصلُهُ
فكيف بِحب يجتمعنَ وَصدُّهُ

«وصله وصده على المضمر في (يجتمعن) اضطراراً، كقوله:

قلت إذ أقبلت وزُهرٌ تهادي
كنعاج الفلا تعسفْن رملا

ولما ذكر سيبويه وجه النصب في قوله: (ما فعلت وأبك) قل: إنما فعل ذلك، لأنك لو قلت: افعل وأخوك، كان

قبيحاً»[1] لقد أفصح الوصل ههنا عن قضية منطقية، تتحوصل في ألا وصل وألا صِدِ في آن؛ إذ كيف يجتمعان؟! فالمعنى لا يستوي حالئذٍ، وكذا إعرابيًّا قولك:افعل وأخوك؛ بيد أن قولك (ما فعلت وأباك؟، يستقيم)، وهكذا يسفر لنا الوصل عن تكامل المعنى والنحو؛ ولا غرو في ذلك؛ فالإعراب فرع المعنى؛ وهذا صدىً لنظرية النظم «الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة حتى يكون هو المستخرج لها»[2]

فالتشريك الإعراب، كما التشريك في المعنى من مناط الوصل.

ومنه قول المتنبي أيضًا:

كفانا الربيعُ العيس من بركاته
فجاءته لم تسمع حُداء سوى الرعدِ

«أي كُفينا حُداء الإبل برعد الربيع، لأنه قام لها مقام الحُداء بصوته، وقيل: كفانا الربيع العيس: أي كان منه رَعيُها وشُربها وحُداؤها. ولو عدد للربيع أيادي غير الرعد كما قال، لقال: فجاءته: أي رعت. وشربت؛ وجاءته. وإنما قال (فجاءته): فبين كيفية الكفاية، كما تقول: أحسنت إليك فوهبتك ألفا، فهبة الألف تفسير للإحسان»[3] حقًا لم يكن مبحث الوصل والفصل حدًا للبلاغة؛ إلا لدقة مسلكه وغموضه، وهاهو يتجسد أمامنا؛ فابن سيده بتعليل ولا أروع يوضح لنا أن هذا التموضع يقتضي الفصل لا الوصل؛ إذ إن المتكلم بصدد شرح ما استغلق فهمه سابقًا، بصدد التفسير والتبيين؛ فهو ينقل المتلقي إلى زاوية أخرى، وهذا ما يوسم ب (الاتحاد التام بين الجملتين؛ كأن تكون الجملة الثانية بدلاً من الأولى؛ أو بيانًا للأولى) حيث خالج المتكلم شعور بعدم أريحية المتلقي مما يُطرح عليه لبعض الغموض الذي ربما تلبس قوله وطرحه؛ فما كان منه إلا أن شرع يفسر ويفصل ما جمُل دفعة واحدة؛ لأنه تأكد لديه أن هذا ربما يكون أقنى وأنكى بدلاً من أن يراكم كمًّا من الحجج والمبرهنات؛ فالوصل حجاج كمِّي، والفصل حجاج كيفي؛

(1) المصدر نفسه – ص266–267

(2) عبد القاهر الجُرجاني – دلائل الإعجاز – مصدر سابق – ص81–82

(3) ابن سيده – شرح المشكل من شعر المتنبي – مصدر سابق– ص305–306

لـذا نـرى ابـن سـيده يقـول: (فجاءتـه: فيبيـن كيفيـة الكفايـة) ومنـه قوله:

جَـوابُ مُسائلـي ألــهُ نَظِـيرٌ
وَلا لــك فــي سـؤالك لا، ألا، لا

«تقديرُ البيت: جواب مُسائلي: (ألـه نظيـر): ألا، لا، أي ليس نظيـر، فـلا جحدٌ، وألا: استفتاح (ولا لـك فـي سـؤالك) نظيـر، لا، أيهـا السـائل، فـلا الثانيـة توكيـد، وإنمـا حاجـة الـكلام: ولا لـك أيهـا السـائل نظيـر، إذا شـككت فـي أنـه لا نظيـر لـه، حتـى أحوجـك ذلـك إلى السـؤال. فقولـه: (ولا لـك) معطـوف على قولـه: (ألاَ، لاَ) فعكس، بـأن قـدم المعطـوف علـى المعطـوف عليـه»[1]. وهـذه الحالـة تُوسـم ب (شـبه كمـال الاتصـال)، وفـي هـذه الحالـة تكون الجملـة الثانيـة جوابًـا لسـؤال اقتضتـه الجملـة الأولـى، فتكون بمثابـة الجـواب؛ فيجـب الفصـل ثمَّ، كمـا يفصـل الجـواب عـن السـؤال. ونلمـح هنا خطابًـا حجاجيًّا بيـن المتكلـم والمتلقـي؛ حيـث قفـز إلـى ذهـن المتكلـم، الـذي يقـرأ المتلقـي بعنايـة فائقـة أنـه ربمـا طـاف بخلـده مشـكل مـا؛ ومـن ثمَّ أفـرز ذاك سـؤالاً، فمـا كان مـن المتكلـم إلا أن آثـر مجاوبتـه

(1) المصدر نفسه – ص 100، وانظر ص332

فيمـا تبـادر إليـه؛ لعـوز الموقـف الحجاجـي، ولأفضليتـه لـه حينئـذٍ؛ فالفصـل أكثـر إنجـازًا مـن الوصـل؛ وفـي هـذا لأكبـر دليـل علـى تقديـر عقليـة المتلقـي، ومـن ثـمّ يُعـد هـذا مهـادًا لتقبـل الخطـاب الحجاجـي برمتـه.

إن مبحـث الوصـل والفصـل ليراوح مكانـه فـي الحجـاج البلاغـي، كمـا كشـفت عنـه النقـاب الصفحـات السـالفة؛ لذا لا يحدونـي الرضا حيال هـذا الرأي «إن مبحـث الوصل والفصل فـي اللغـات لا يعـدو أن يكـون أمـر أسـلوب، ولا يصـح أن نتلمس فيه حكمًا علـى عقليـة الشـعوب التـي تصـل،

أوعقلية الشعوب التي تفصل»[1] فهو بذلك ينقض البلاغة نقضًا؛ إذ هو حدُّها.

ومن توصيات الدراسة:

1 - وجوب تطوير زوايا التناول الحجاجية؛ بحيث تستغرق كافة علوم البلاغة بكل طرائقها وأشكالها.

2 - العمل على تفعيل الجانب التطبيقي لهذا اللون البلاغي؛ ليستوعب فنون القول، تليدها وطريفها.

3 - الاعتزاز بموروثنا الثقافي والحضاري؛ فالتمسك به جزء أصيل من هويتنا؛ بل هو سر وجودنا؛ فمن ليس له ماضٍ ليس له حاضر؛ بل إن ماضينا لأكثر ثمرًا، وأعزُّ خطرًا.

4 - ضرورة تلاقح بلاغتنا العربية بمستجدات الساحة الثقافية لانتزاع الريادة العلمية كسابق عهدنا.

5 - التشديد على ضرورة العودة لذاتنا ولهويتنا، باستقراء سفرنا البلاغي المطرَّز بأفانين هي آيات في الروعة والبهر واشتراعه -أي سِفْرنا البلاغي- الأساس والمنطلق؛ إذ علينا أولاً حين نشرع بمناقشة أي لونٍ من ألوان القول أن نتولى الجهد العربي في ذلك، ثمَّ لا بأس من الحديث في ثنايا ذلك عمَّا أضافه الغرب حياله، لا أن يحدث النقيض جاعلين ما حقَّقه الغرب هو الأصل وما عداه هباءً منثورًا.

مهما يكن من أمر، فما نوده، هو إرساء منظومة خطابية تداولية تواصلية ناهضة على قواعد عربية المنشأ تحفل بمسارات تفاعلية حوارية ذات مساقات ناجزة تتقاطع مع عتبات وتقنيات الخطاب الحِجاجي متكئة على جهد مبدعينا، ولا إثم من تطعيمها بما انتهى إليه مفكرو الغرب، وهذا التلاقح وذاك التواشج من سيمات حضارتنا العربية الأصيلة.

(1) د. إبراهيم أنيس - من أسرار اللغة - ط/مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ط(6) 1978م - ص327

رحّالة

الأديب التّونسي علي الورداني مكلّفًا من السّلطان بمهمة علمية في أسبانيا

بقلم: د. مصطفى الستيتي*

علي الورداني شاعر ورحّالة تونسي، وهو من أوائل التّونسيين الذين انخرطوا بالمدرسة الصّادقية وتلقّوا بها تعليمًا متقدّمًا يجمع بين أصالة الثّقافة العربية الإسلامية وبين العلوم الحديثة. وشأنه شأن كثير من التّونسيين الآخرين سافر الورداني إلى استانبول، وأقام بها مدة طويلة استفاد ممّا فيها من الكُنوز العلميّة والثقافيّة، ثم كلّفته نظارة المعارف، ضمن بعثة علميّة، للانتقال إلى أسبانيا للبحث عن المخطوطات العربيّة في مكتباتها. وقد تركت هذه الرّحلة أثرًا بالغًا في نفس الورداني، وكانت بمثابة البحث عن المجد الضّائع في بلاد ظلت تحت حكم المسلمين لمدة قرون من الزّمن. لكن قبل الخَوض في الحديث في شخصيّة علي الورداني العلميّة ومهمّته إلى أسبانيا، يحسُن بنا أن نُلقي الضّوء بشكل سريع على علاقة العَرب بالتّراث العلمي الإسلامي في مكتبات أسبانيا.

* أكاديمي تونسي.

المسلمون وعلاقتهم بالتراث العلمي في أسبانيا

بعد انقطاع طويل عن مصادر المعرفة في أسبانيا بدأ العرب، سواء منهم المشارقة أو المغاربة يتردّدون على أسبانيا، وقد كان الغرض من رحلاتهم طلب العلم والرّغبة في اكتشاف ما في هذه البلاد من مخطوطات وتراث علمي عربيّ . كما أنّ تردّدُ العرب على أسبانيا يُمثل ربطًا جديدًا للصّلات التي انقطعت طوال قرون عديدة بين البلاد العربيّة والغرب عمومًا. ويمكن إرجاع انقطاع هذه العلاقات إلى عدة صعوبات لعلّ أهمّها: اِنطواء العرب على أنفسهم خاصّة في القرون الوسطى بعد الهزائم التي لحقت بهم من قبل الغرب المسيحي، وطرد المسلمين من الأندلس. بيد أنّ العرب والمسلمين أخذوا يخرجون من هذه العزلة إثر حملة نابليون بونابارت على مصر. وقد تجلّت بوادر الوعي بمكانة الغرب مع محمّد علي، الذي أدرك بعمقٍ الأبعادَ الحضاريّة لحملة بونابارت، وذلك ما جعله يقتنع بضرورة الاقتباس من الغرب مع المحافظة على الرّوح الإسلاميّة. كما جعله

■ السلطان عبد الحميد الثاني ■

يقتنع بأن لا سبيل لتحقيق هذه المعادلة إلا عن طريق المعرفة، وهذا ما يُفسّر تكاثر البعثات العلميّة العربيّة[1] خاصة ابتداء من عام 1828م[2]، وكانت العواصم الأوروبية الكبرى مثل روما وباريس ولندن وبرلين قبلة هذه البعثات، بينما ظلت أسبانيا بعيدة عن الاهتمام. غير أنّ مشاعر الحنين لدى العرب والمسلمين

(1) للاطلاع على تفاصيل البعثات في عهد محمد علي راجع: عمر طوسون، البعثات العلمية في عهد محمد علي، مطبعة صلاح الدين بالإسكندرية، 1934م.

(2) انظر المقدّمة التي كتبها عبد الجبار الشّريف في تحقيقه لكتاب الرّحلة الأندلسية تأليف علي الورداني، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)، الدّار التونسية للنشر، رادس 1982م، ص. 13.

سوف تتحرك بدواخلهم لما لهذه المدينة من تاريخ لا يمكن أن يُمحى من الذّاكرة الإسلامية.

وبالإضافة إلى هذا يرى الأديب الفرنسي هنري بيراس (1890–1983م) في كتابه «أسبانيا كما يراها الرّحالة المسلمون» أنّ هناك عاملين أفرزا الرّغبة في الالتفات إلى أسبانيا هما:

أوّلا: إنشاء صحيفة الجوائب[1] في القسطنطينية. وثانيا: مساهمة المشارقة في المؤتمرات العالمية للمستشرقين في أوروبا[2].

وقد أسس أحمد فارس الشّدياق في القسطنطينيّة جريدته «الجوائب»[3]

> **من أهمّ المكتبات الأوروبية التي تحتوي على مخطوطات عربية ثمينة مكتبات أسبانيا وخاصة مكتبة الإسكوريال بمدريد.**

في عهد السّلطان عبد الحميد الثاني، وكانت ناطقة بالعربيّة وساهمت في نشر التراث الفكري والأدبي العربي وذلك بمباركة من السّلطان نفسه، إلا أنّ الشدياق الذي عاش طويلا في أوروبا[4] وتشبّع بالمناهج العلميّة لم يكن ليكتفي بما توفّر له من وثائق لا تخلو من نقائص تضعف من قيمتها العلمية.

ولذلك حرص على الاطّلاع على محتويات المكتبات الأوروبية من مخطوطات عربيّة والتي يحتاجها حاجة ملحّة لمواصلة رسالة «الجوائب» كما يتصوّرها.

(1) هي صحيفة أسبوعية سياسية برزت في الآستانة بتاريخ 1860م لمنشئها أحمد فارس الشّدياق الذي كان ينشرها في المطبعة السّلطانية. ثم أنشأ الشّدياق مطبعة خاصة بها، وجهّزها بكل أدوات فنّ الطباعة حتى صارت تعدّ من أشهر المطابع في السّلطنة العثمانية. انتشرت الجوائب انتشارًا كبيرًا واسعا في الشرق والغرب ونالت شهرةً واسعة، فكان يقرأها سلاطين العرب ومُلوكهم وأمراؤهم وعلماؤهم في تركيا ومصر ومراكش والجزائر وتونس وزنجبار وجاوا والهند وغيرها.

(2) راجع كتابه: Henri Pérès, L'Espagne vue par les Voyageurs Musulmans de 1610 à 1930, Publications de l'Institut d'Études Orientales: Faculté des Lettres d'Alger VI. Paris: Adrien-Maisonneuve, 1937.

(3) نشر الشّدياق عددا من المقالات في جريدة «الوقائع المصرية» من سنة 1825 إلى 1834م، وبعد ذلك أسس جريدة «الجوائب» بالعربية في استانبول سنة 1860م. انظر فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، بيروت 1913، ص. 96–99.

(4) أحمد فارس الشدياق: درس مبادئ العلوم اللّسانية في مدرسة عين ورقة المارونية، ثم انتقل في عام 1825م إلى مصر وواصل دراسة اللّغة العربية. ثم انتقل إلى مالطة لتعليم اللّغة العربية كما تولّى إدارة المطبعة الأمريكية في مالطة حتى عام 1848م. وهناك كتب «الواسطة في معرفة مالطة». ثم دعي إلى انكلترا لتعريب الكتاب المقدس. وأقام الشدياق في انكلترا ثم فرنسا حتى استدعاه باي تونس عام 1855م واعتنق الإسلام هناك. وقد كتب عن رحلاته كتاب «السّاق على الساق فيما هو الفارياق».

■ مكتبة الإسكوريال في أسبانيا ■

ومن أهمّ المكتبات الأوروبية التي تحتوي على مخطوطات عربية ثمينة مكتبات أسبانيا وخاصة مكتبة الإسكوريال بمدريد.

ولعلّه أعلم السّلطان عبد الحميد برغبته، وتجسّمت هذه الرّغبة ابتداء من عام 1885م حين أخذ هذا السّلطان يُرسل البعثات إلى أسبانيا بحثًا عن المخطوطات. وأول من فتح الطّريق هما محمد محمود الشّنقيطي[1] وعلي الورداني.

من تونس إلى استانبول

كانت ولادة علي الورداني في عام 1861م، وقد وصل في سن مبكّرة إلى تونس قادمًا إليها من بلدة «أكودة» التّابعة لمنطقة السّاحل، ودرس في المدرسة الصّادقية التي تم إحداثها سنة 1875م في عهد المشير محمد الصّادق بك[2].

وقد حذق العربية والفرنسيّة والتركيّة والإيطالية، الأمر الذي لفت انتباه مؤسس المدرسة الصّادقيّة

(1) محمد محمود الشنقيطي: توفي سنة 1904م اتصل بالسلطان عبد الحميد فكلّفه بمراجعة الكتب العربية الموجودة في أسبانيا. من تصنيفاته: «الحماسة السنية الكاملة المزية في الرّحلة العلميّة الشّنقيطية»، و تصحيح كتاب الأغاني» و «حاشية على شرح لامية العرب». حول حياته راجع : أحمد بن الأمين الشنقيطي،الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة المنير، نواكشوط، مكتبة الخانجي، القاهرة 1989.

(2) محمد الصادق باي: هو والي تونس، حكم البلاد من عام 1859م إلى حين وفاته عام 1882م. صدر خلال عهده أول دستور تونسيّ وشُرع العمل به في عام 1861م. ونصّ هذا الدستور على تنظيم الحياة السّياسية بالفصل بين السّلطات الثّلاث والحدّ من سلطة الباي، الأمر الذي دفع بإلغائه سنة 1864م. وفي سنة 1881م وقّع على معاهدة الحماية التي تشكّل بداية الاحتلال الفرنسي لتونس.

الجنرال خير الدّين[1] الذي كلفه بعد ذلك بمهمة أمانة سرّه.

وعندما غادر خير الدّين البلاد التّونسية تلبية لدعوة من السّلطان عبد الحميد الثاني لتكليفه بمهمة الصّدارة العظمى (رئاسة الوزراء) في الدّولة صاحَبه علي الورداني مع عائلته إلى استانبول التي سيقضي بها أجمل وأخصب سنوات حياته. وكان خير الدّين التّونسي اُستدعي من قبل السّلطان في عام 1878م على إثر هزيمة الدّولة العثمانية في الحرب مع روسيا بهدف الاستفادة من تجربته وخبرته لإصلاح أحوال الدّولة العثمانية المتأزّمة على جميع المستويات.

أقام علي الورداني في قصر الصّدر الأعظم، وكان يتردّد على القصر بلا انقطاع أعيان الدّولة العثمانية آنذاك، فضلاً عن الشّخصيات العلمية والفكريّة الإسلامية التي كانت تدفعها

(1) هو المصلح والسّياسي ورجل الفكر خير الدّين باشا التّونسي، ولد حوالي عام 1820م، ثم انتقل إلى استانبول وهو صغير. وبيع لأحد مبعوثي والي تونس. وهناك تلقى تعليما وتدريباً عسكريًا متكاملاً. وترقى في المناصب حتى أصبح رئيسًا للحكومة. ثم دعاه السّلطان عبد الحميد الثاني عام 1878م وعيّنه في وظيفة الصدر الأعظم، توفي في استانبول عام 1890م ودفن بها. عن حياته وشخصيّته راجع أتيلا تشيتين، خير الدّين باشا التّونسي، ترجمة مصطفى الستيتي، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس 2003م.

في مستهل كتابه «الرّحلة الأندلسيّة» يتحدّث علي الورداني عن المهمّة التي تمّ تكليفه بها إلى أسبانيا وباريس ولندن ضمن البعثة العلميّة.

طموحاتها أو ميولها نحو ذلك القصر. وفي استانبول أتقن علي الورداني اللّغة التركيّة أكثر من خلال معاشرة العلماء والمفكّرين والسّاسة وكثرة الحديث معهم. وقد كان صاحبنا كثير التنقّل في أرجاء المدينة الجميلة التي تزخر بالآثار القديمة التي مرّت عليها مئات السّنين، لكنّها ما تزال صامدة تحكي قصص التّاريخ والحضارة، ومن أبرز هذه الآثار مكتبة السّليمانية التي تأسست في عهد السّلطان سليمان القانوني، ومكتبة بايَزيد القريبة منها ومكتبات أخرى كثيرة منتشرة في أرجاء المدينة.

وقد كان يشدّه حنين خاص إلى مقام الصّحابي الجليل أبي أيّوب الأنصاري في منطقة «أيّوب سلطان» التي سمّيت باسمه تكريمًا له. وكان هذا الصّحابي توفّي في العصر الأموي تحت أسوار قياصرة الرّوم،

وكانت نيّته تنفيذ وصيّة النّبي عليه الصّلاة والسلام عندما قال: «لتفتحن القسطنطينيّة فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»[1]. فكانت نيّته فتح القسطنطينية، إلا أنّ المنيّة وافته قبل أن يحقّق حلمه.

ولقد كانت تلك الأحلام المتواصلة تقود هذا الشابّ بعيدًا عن وسط المدينة الصّاخب فتثير قريحته الشّاعريّة وتوحي إليه ببعض المقاطع الشّعرية الرّقيقة. ثم أخبره الصّدر الأعظم ذات يوم أنّه اقترح على السّلطان تعيينه كاتبًا للبعثة العلميّة المكلفة بإحصاء المؤلّفات العربيّة المحفوظة في مكتبات أسبانيا وفرنسا وانجلترا ودَرسها وتمحيصها.

السفر إلى أسبانيا

في مستهل كتابه «الرّحلة الأندلسيّة» يتحدّث علي الورداني عن المهمّة التي تمّ تكليفه بها إلى أسبانيا وباريس ولندن ضمن البعثة العلميّة. غير أنّ التّركيز في الرّحلة كان منصبًّا أكثر على أسبانيا لما فيها من كثرة المخطوطات العربيّة المحفوظة «إنّه لما كان الاهتمام بشأن

(1) الجامع الصغير، حديث رقم 7227.

■ كتاب الرحلة الأندلسية ■

تقدّم العُلوم والمعارف من أجلِّ المقاصد المتّجهة نحو تقدّمها يومًا فيومًا أنظارُ جلالة مولانا السّلطان المعظّم عبد الحَميد خان أيد الله سلطنته بعثت نظارةُ المعارف العموميّة السّلطانيّة مأموريةً إلى أسبانيا وباريس ولندن للاطلاع على بعض ما بها من الآثار العربيّة والكتب النّفيسة الإسلامية، وعيّنتني تُرجمانًا للمأموريّة بأمر حضرة الوزير الخطير والفيلسوف الشّهير عالم الوزراء ووزير العُلماء صاحب الدّولة منيف باشا وزير المعارف العموميّة»[2].

(2) علي بن سالم الورداني، الرّحلة الأندلسية ، تحقيق عبد الجبّار الشّريف، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)، الدّار التونسية للنشر، رادس 1982م، ص.31.

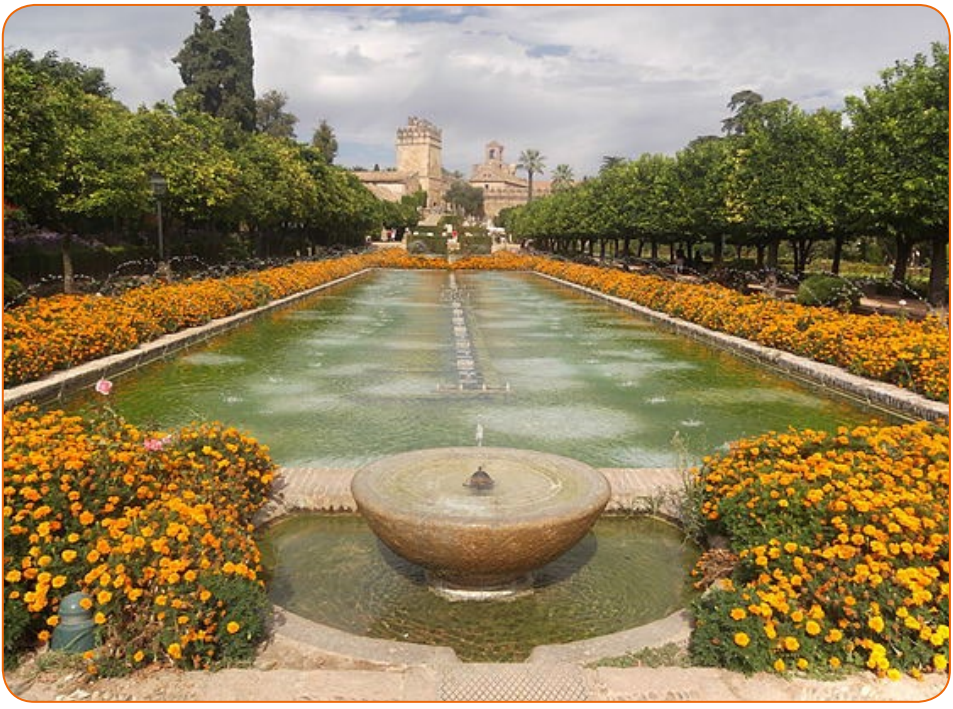

■ من حضارة المسلمين في الأندلس ■

وقد استغل الورداني فرصة وجوده في أسبانيا ليكتُب شيئًا عن رحلته وما استكشفه وما رآه من المشاهدات والآثار بتلك الدّيار.

لعل أهمّية رحلة الورداني تكمن في الازدواجيّة بين ماضي الأندلس المجيد وما فيه من عظمة سياسيّة وفكريّة وعلميّة، وبين حاضر الأمّة الإسلامية وما يكتنفه من ضعف وهوان، إنّها سياحة في ماضي المسلمين ولهاث وراء المجد الضّائع، وهكذا تسنّى لهذا الكاتب التّونسي الذي حلّ ضيفًا على استانبول أن يخُوض هذه التّجربة الفريدة الصّعبة ليمزج بين ماض ناصع عريق وبين حاضر مرير ليعيش هذا التّمزق وهذه الغربة [1]. ومن هنا كانت لرحلته قيمة أدبيّة وفنية كبيرة تستحق التأمّل والدّراسة.

بعد أن تلقّى الورداني وصحبه «الأوامر العلية اللاّزمة والتّعليمات المقتضبة من نظارة المعارف الجليلة» أخذ في «التّداركات السّفرية فلمّا كان

(1) علي العريبي، «الرّحلة الأندلسيّة للورداني والبحث عن المجد الضائع»، الفكر، العدد 5، فيفري 1984، ص.91.

يوم الأربعاء تاسع عشر ذي الحجة سنة 1304 هـ «بارح دار الخلافة العظمى»[1]. وقد وصف لنا البحر حال خُروجه من مدينة استانبول وصفا أدبيًا شاعريًّا ينم عن خيال وجمال فقال: «وعندما ركبنَا الفَابور كان الهواء ساكنًا لطيفًا ومرآة الجوّ صقيلة جدّا، ومياه الخليج هادية الرّوع، والوقت وقت العصر والشّمس مائلة إلى حيث الغروب (...) ومازلت كذلك حتى استترت عنّا غرّة الشّمس وأشرق جبينُ القَمر، فشكّلت للعيون أبهى منظر وأبهج مخبر...»[2].

غادرت البعثةُ استانبول في 8 سبتمبر سنة 1887م ووصلت بعد بضعة أيّام إلى مرسيليا. ثمّ توقّفت قليلاً بمدينة بوردُو ومنها تحوّلت إلى أسبانيا، ثم توجّهت إلى مكتبة الإسكوريال[3] وشرعت في القيام بالمهمة المنوطة بعهدتها، أي إحصاء المخطوطات النّادرة الموجودة في تلك المكتبة ودراستها دراسة علميّة. كما استغل أعضاء البعثة الفرصة للتجوّل في العاصمة الاسبانيّة وزيارة معالمها الأثريّة والتّمتع بجمالها.

> أهمّية رحلة الورداني تكمن في الازدواجيّة بين ماضي الأندلس المجيد وما فيه من عظمة سياسيّة وفكريّة وعلميّة، وبين حاضر الأمّة الإسلامية وما يكتنفه من ضعف وهوان.

ومن هناك تحوّلوا إلى طليطلة وإشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية، وأجروا بها أبحاثهم. ولم يغفل علي الورداني عن تسجيل ملاحظاته كتابيّا إذ أنّ ذلك يمثل أهم ما كُلّف به من عمل، وذلك لتمكين المهتمين بهذا المجال للاستفادة من الانطباعات العديدة التي حصلت له خلال رحلته الطّويلة عبر تلك المناطق ذات الجمال الخلاب والتّاريخ العتيد.

(1) علي الورداني، الرّحلة الأندلسية ، ص.31.

(2) علي الورداني، الرّحلة الأندلسية، ص. 32.

(3) الإسكوريال: اسم يعني في اللّغة الإسبانية منجم الحديد، وهو اسم للجبل الذي توجد فيه مكتبة الإسكوريال. والمكتبة هي عبارة عن قصر الملك فيليب الثاني الذي بناه عام 1584ميلادية، وتعتبر هذه المكتبة من أغنى مكتبات العالم للمخطوطات القديمة، إذ إنها تحتوي الآن على أكثر من ثلاثة آلاف مخطوطة، معظمها من أهم المخطوطات العربية في القرن الخامس والسّادس الهجري، وقد تم إهداء نسخ ميكروفيلمية كاملة منها لمكتبة الإسكندرية في مصر ومكتبة المغرب الملكية.

■ مطبوعات الجوائب ١٢٩٩ ■

مشاهدات الورداني في أسبانيا

في مدريد بدأ الورداني يتنفّس الأمجاد الضّائعة، فقد رأى على أبواب هذه المدينة نقوشًا مُتقنة ملوّمة مأخوذة من آثار العرب، إلا أن هذه النّقوش تغيرت مع الزّمن وداخلها الفنّ الأوروبي، ولذلك لا يتبيّنها إلا من كانت له معرفة تامّة بالنّقوش العربيّة.

وفي مدينة الإسكوريال يُقبل الورداني على آثار القُصور العربية الموجودة بالمدينة فيصف ما بها من نُقوش ورسوم، وقد استرعى انتباهه بقصر فيليب الثاني رسوم جُدرانه التي تصوّر حروب دولة أسبانيا مع غيرها من الدّول بما فيها الدّولة العليّة «وفي جُدران القَصر المذكور رسم غالب محاربات دولة أسبانيا سواء كانت مع العرب أو مع غيرهم من الدّول، حتّى أنّي رأيت بعيني رسم المحارَبة المشهورة التي وقعت في خليج (اللينت) بين الدّولة العلّية وأسبانيا، لكن هذه الوقائع مرسومة بكيفيّة لا تكاد تُوصف إلا بلسان المشاهدة» [1].

ويذكر الورداني أنّ الوفد العلميّ مكث في مكتبة الإسكوريال الموجودة في القصر ذاته عشرين يومًا لمدة ستّ ساعات كلّ يوم ما عدا يوم الأحد، يتصفّح الكُتب وينقّب فيها. وقد أُعجب بالإتقان الذي يُميّزها والتّرتيب الذي هي عليه، ويذكر أن فيها 84 ألف مجلّد منها أزيد من ألفي مجلّد كتب عربيّة اختار منها هو 408 كتاب سجّلها كلّها وقدّم عنها تقريرًا مفصلاً للوزارة العثمانية[2].

ويعتقد النّاس خطأً حسب الورداني «أن الكُتب العربية الموجودة في هذه المكتبة من مخلّفات الأندلس، وليس

(1) علي الورداني، الرّحلة الأندلسية ، ص.50.

(2) المصدر نفسه، ص. 51.

> في مدريد بدأ الورداني يتنفّس الأمجاد الضّائعة، فقد رأى على أبواب هذه المدينة نقوشًا مُتقنة ملوّمة مأخوذة من آثار العرب.

الأمر كذلك، فقد أظهر لي التّحرّي والتّحقيق وكثرة المحاورة والمذاكرة مع أرباب الوقوف والاطلاع أن الإسبان لما ملكوا الأندلس أشار عليهم رُؤساء الأَديان بحرق الكُتب الإسلاميّة، لا سيّما الدّينية فكانوا كلّما تمكّنوا من بلاد أحرقوا كتبها إلاّ ما بقي عند بعض الأفراد، وأنّ هذه الكُتب هي من كتب زيدان أمير المغرب كان اِشتراها من المشرق، وبينما مأمورُوه قد قَدموا بها إذ فاجأتهُم سفن أسبانيا الحربيّة قريبًا من بوغاز سبتة (جبل طارق) فغلبتهُم وغَصبت هذه الكتب، فهي في التحقيق من كُتب حُكومة مراكش لا الأندلس. والذي يدلّ على صحّة ما ذهبتُ إليه ما شاهدته مكتوبًا على أغلب الكُتب من أنّها ملك الأمير زيدان المذكور»[1].

وقد أطلعه بعض قسيسي مدينة الإسكوريال على أنواع من النّقود الإسلامية وقد كُتب على وجهها الأول:

■ أحمد فارس الشدياق ■

لا إله إلا الله، والأمر كله لله، لا قدرة إلا لله، أما الوجه الثاني فقد كتب عليه: الله ربنا ومحمد رسولنا والهادي إمامنا. والظّاهر أنّ هذه النّقود هي من سكّة الخليفة العبّاسي موسى الهادي، إذ ليس من الخلفاء العبّاسيين من تلقّب باسم الهادي غيره[2].

(1) المصدر نفسه، ص. 52.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

■ مسجد قرطبة في أسبانيا ■

وصف الورداني طليطلة وأشبيلية وقرطبة وغرناطة تلك المدن الفاتنة المثيرة لذكريات ماض مليء بالأحداث المجيدة أو المحزنة. ولنتوقف معه في قرطبة ولنتخيّل ما شعر به من حزن عميق عندما عبر شوارع تلك المدينة العريقة الفخورة بماضيها المجيد، وتذكّر كيف كانت مزدحمة بالجماهير المسلمة الصّاخبة.

وبعد نحو أربعة أشهر من العمل والبحث والمشاهدات والتّجوال في أنحاء أسبانيا عادت البعثة العلمية إلى استانبول بتاريخ 25 ديسمبر سنة 1887م وقد أعدت تقريرًا عن مهمتها. وحسب ما أثبته الورداني في نهاية كتابه «الرّحلة الأندلسيّة» فإن الكُتب التي أُعدّ بشأنها التّقرير كانت متنوّعة المواضيع، فقد جاء بعضها في اللّغة وبعضها في الفقه وبعضها في التّاريخ وبعضها الآخر في الطبّ وغير ذلك. وقد تم اِنتخابها بشكل خاصّ من المكتبة العموميّة بمدريد، ومكتبة الإسكوريال ومكتبة الأندلس. وقد ذكر أسماء بعض هذه الكتب وأسماء مؤلّفيها والمجال الذي تنتمي إليه.

ولقد مكّنت رحلة الورداني من تقديم خدمة علميّة جليلة للمكتبة العثمانيّة، وفي الوقت نفسه نقل لنا الورداني صورةً عن آثار العَرب في أسبانيا وعن الحياة الاجتماعية والعلميّة والثقافية هناك، ومن حسن الحظّ أنّه دوّن ما رآه وشاهده بنفسه في كتابه القيّم «الرّحلة الأندلسيّة» الذي يَستحقّ كثيرًا من البحث والدّراسة.

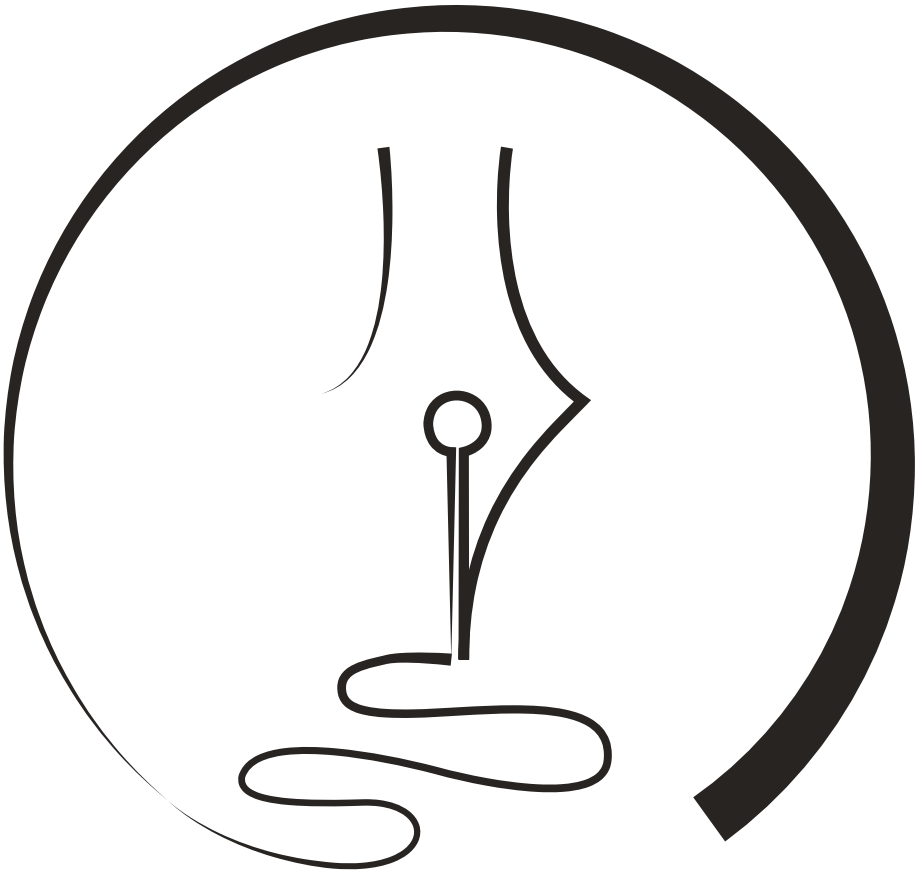

مقالات

الشيخ عبدالله الجابر

شخصية عالمية في مجال الثقافة والأدب

بقلم: د. ليلى محمد صالح*

في 5 نوفمبر 2014م رعى سمو الأمير الشيخ صباح الأحمد احتفالية اختيار اليونسكو الشيخ الراحل عبدالله الجابر شخصية عالمية في مجال الثقافة والتعليم.

ويعتبر هذا الاختيار إنجاز فخر واعتزاز يحسب للكويت الرائدة في التعليم في منطقة الخليج العربي.

وقد تم الاحتفال في قصر المغفور له الشيخ عبدالله الجابر القديم بجانب قصر دسمان الذي سكنه مدة تجاوزت عقداً من الزمان وتحول إلى أول متحف في الكويت، وفي الاحتفالية عرض فيلماً سينمائياً حول مسيرته وإنجازاته ومعرضاً فنياً يحتوي على صور تربط الماضي بالحاضر.

الشيخ عبدالله الجابر عاش حياته

الشيخ عبدالله الجابر

كلها يحترم العلم وقد ترك بصماته على مسيرة التعليم في الكويت منذ بداية عصر النهضة، حيث حمل مسؤولية التعليم في الكويت منذ بداية عصر النهضة ولمدة ثلاثة عقود

* أديبة وباحثة كويتية.

متتالية من عام 1936م الى عام 1965م، فهو أول رئيس للمعارف وأول وزير للتربية والتعليم في عهد الاستقلال، كما ترأس أول نادٍ أدبي في الكويت عام 1924م، وشيد العديد من المؤسسات الثقافية.

إن الشيخ عبدالله الجابر -رحمه الله- يعتبر من أبرز شهود تاريخ الكويت المعاصر، ومن أبرز صناع تاريخه المضيء، شارك في عدة معارك وأصيب في موقعة الجهراء عام 1920م كان يحترم دور المرأة الكويتية، لأن فهمه للحضارة يتمشى مع روح العصر إلى الأمام وليس إلى الوراء.

كما أن آراءه بقيت سديدة بالنسبة لقاصدي ديوانة في (قصر بنيد القار) الذي كان بمثابة مشعل نور وتنوير في ساعات الحيرة والظلام حتى توفاه الله في يوم الأربعاء 18 سبتمبر 1996م، وبذلك فقدت الكويت فارساً من فرسان هذا الوطن الغالي.

رحمه الله وأسكنه فيسح جناته.

قصر الشيخ عبدالله الجابر في بنيد القار في الخمسينات

مريم عبد الملك الصالح

أول معلمة في دولة الكويت

تعتبر المربية الفاضلة مريم عبدالملك الصالح المبيض من أعلام النهضة التعليمية في الكويت، فهي أول وأصغر معلمة، مارست مهنة التعليم وهي ابنة السنوات العشر واستمرت لمدة أربعين عاماً.

أستاذتنا الفاضلة مريم عبدالملك الصالح -أطال الله في عمرها- من مواليد الكويت 1926م في فريج السبت، ختمت القرآن الكريم في ستة أشهر وهي لم تتجاوز من العمر السنوات الأربع، ولها من الأبناء، ثلاث بنات وثلاثة أولاد، في الغزو الغاشم على دولة الكويت أغسطس 1990م أُسر ابنها الكبير محمد، فهي أم الأسير الذي اعتبر شهيداً عند الله تحفه ملائكة الرحمة وأوسمة المجد إلى ملكوت الله الرحيم الرحيب. تقول في رثاء ابنها محمد:

ولـدي وبهجـة ناظـري
وسـراج نوري في الظلام
يحميـك رب واحـد
ويظلـل غيبتـك الغمـام
أمنتـك البـاري الـذي
عينـاه حقـاً لا تنـام

أ. مريم عبد الملك الصالح

أم الشهيد مريم عبدالملك الصالح عملت معلمة من عام 1937م - 1946م وكانت أصغر معلمة، وهي أول معلمة وأول ناظرة مدرسة في الكويت.

عادت إلى التدريس مرة أخرى عام 1952م - 1961م ونتيجة لتميزها حازت الميدالية الذهبية للدولة عام 1969م، وفي عام 1982م تقاعدت من التدريس وفتحت

مريم عبدالملك الصالح أول مدرّسة كويتية مع رئيس المعارف الشيخ عبدالله الجابر طيب الله ثراه

لها مدرسة خاصة أسمتها «جوهرة الصالح الأهلية» درست فيها وكانت هي ناظرتها وأسمتها بهذا الاسم نسبة لعائلتها.

الأستاذة مريم أطلق اسمها على إحدى مدارس وزارة التربية وهي «مريم العبدالملك الصالح الابتدائية بنات» تقع في منطقة الخالدية.

في عام 2003م حازت جائزة الدولة التقديرية من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب تقديراً لدورها في التدريس.

في عام 1975م أصدرت كتاباً تربوياً بعنوان «صفحات من التطور التاريخي لتعليم الفتاة في الكويت»، كما أصدرت كتاب نبذة عن حياة المؤلفة «مريم عبدالملك الصالح» أول معلمة في الكويت عام 1999م.

أطال الله في عمر أستاذتنا مريم عبدالملك الصالح التي أدت مهنة التعليم بصدق وإخلاص إيماناً منها بأن التدريس: هو مهنة الأساس المهمة لبناء المجتمع.

الدكتور الفنان يوسف دوخي

اسمه يوسف فرحان الدوخي

حاصل على درجة الدكتوراه عن (أبي الفرج الأصفهاني) عام 1981م

تقلد منصب -عميد المعهد العالي للدراسات الموسيقية-

تعلم يوسف دوخي العزف على العود بشكل سري دون أن يعلم أخوه المرحوم (عوض دوخي) وقد تفوق في العزف على العود مما أذهل الجميع.

عمل نهاماً على السفن مع شقيقه عوض دوخي، والنهام هو المطرب، مطرب السفينة الذي يقوم بترديد الأغاني الفلوكلورية خلال رحلة السفر والغوص، وكان ليوسف دوخي نشاطاً كبيراً في تسجيل الأغاني التي كان يؤديها بصفته مطرباً بالإذاعة، ولكنه فضل أن يترك المجال لشقيقه عوض ويتفرغ هو للتأليف والتلحين.

الشاعر الكبير أحمد رامي عندما حصل على أغنية من تأليف يوسف دوخي التي تقول:

الفنان يوسف دوخي

لا تخاصمني يا آثرني في هواك

نظرة واحدة تكفي عن طول جفاك

رد قلبي أنت ما تدري

قال إنه بحق «رامي الكويت» يوسف دوخي. كان يوسف دوخي يهتم كثيراً في كل ما يتعلق بالبحر والغوص، وقد أعد فيلماً سينمائياً من إخراج (هاشم محمد) في كل ما يتعلق بالبحر والغوص، وقد اشترك فيه (35) بحاراً على ساحل كاظمة الممتد من الجهراء حتى الحدود

الكويتية، كما أعد فيلماً آخر بعنوان (غوص الردة) مثل من خلاله في أسبوع الفيلم العالمي للأفراح الوثائقية 1984م في ألمانيا. يقول يوسف دوخي: الإيقاعات الكويتية هي (94) إيقاعاً وكلها مختلفة وللصوت الكويتي ثمانية إيقاعات، والمعروف أن للإيقاع صوتين عربي وشامي.

أما عن رأيه في الأغنية الكويتية يقول: يجب أن تلتزم بالبيئة الكويتية والخليجية وأن تساير النهضة الفنية التي تعاصرها الكويت فلا ترفض القديم وإنما تطوعه بأسلوب شائق يجاري روح العصر بحيث يتلاءم الأمس باليوم وبالغد ليساير روح العصر الحديث.

الفنان يوسف دوخي هو أول من استخدم إيقاعات الطنبورة بشكل علمي وقد استخدم هذه الإيقاعات في بعض الألحان الكويتية كما أنه أول من أدخل الرقص على إيقاعات الطنبورة لذلك سُمِّي ملكاً غير متوج لإيقاعات الطنبورة.

كان رحمه الله يؤلف الأغاني ويلحنها وينسب بعضها إلى أخيه عوض دوخي، وعندما سئل عن السبب قال: إذا أنا كتبت كلمات الأغنية ولحنتها أكتفي فقط أني مؤلفها أما التلحين فيكون لأخي عوض ولا فرق بين الأخوان.

وحين نال درجة الدكتوراه عام 1981م كتبت جريدة الأخبار (إن الفنان الدكتور يوسف دوخي قد حاز لقب دكتور بجدارة فائقة بعد أن قدم رسالته التي جمعها بين سطور كتاب (الأغاني للأصفهاني) بعناية فائقة وكأنه يجمع اللؤلؤ من قاع الخليج، يقول الدكتور حسين نصار عميد كلية الآداب آنذاك والذي اشترك في مناقشة الدكتور يوسف دوخي:

(يبدو أن صناعة اللؤلؤ التي كانت مزدهرة في الكويت قديماً أثرت عليك فجعلتك تغوص في قاع صفحات كتاب الأغاني للأصفهاني وتستخرج منه اللآلئ التي عجز عنها من سبقك).

رحم الله الفنان الدكتور يوسف دوخي الذي رحل عنا في يوم 1990/9/6م في أيام الاحتلال الآثم على دولة الكويت تاركاً لنا ألحاناً وأغاني متميزة في عالم الغناء الكويتي.

المكتبات التجارية القديمة في الكويت

مشاهدات وذكريات

٤/٤

المكتبة هي منبع المعرفة، ومخزونها الذي لا ينضب وهي الأرشيف الذي يمد الكاتب والباحث والعالم والمتعلم بكل ما أنتجته عقول البشرية على امتداد عصورها ومازالت تُغذّى بنتاج كل الأجيال اللاحقة، فالكتب تضيف أعمارًا إلى أعمارنا، فهي الكون كله والحياة بما خفي منها وظهر بحسب قول الأديب الكبير عباس محمود العقاد، الذي نهل من ينبوعها كل فكره وثقافته وإنتاجه دون أن يعتمد على شهادة دراسية يعلقها على الحائط ويكتفي بمشاهدتها والتفاخر بمحتواها.

بقلم: خالد سالم الأنصاري*

والكويت منذ نشأتها عرفت أهمية الكتاب وساهم بعض رجالها من ذوي الفكر النير في توفير سبل المعرفة مبكرًا وساهموا في جلب الكتاب من بلدان بعيدة كالهند ومصر وبغداد، والبعض منهم ساهم بطبع ونشر الكتب التي تحتوي مادتها على ما يناسب ميولهم واحتياجاتهم كالمصنفات الملاحية وكتب أوزان اللؤلؤ وكتب الفقه المالكي، ودواوين بعض الشعراء الكبار منذ نهاية القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى نسخ عدد من المخطوطات في هذا المجال وغيره منذ عام 1682م.

ولعل مخطوطة الموطأ للإمام مالك خير دليل على ذلك، ومازالت الدولة تسير على هذا المنوال وتوليه الاهتمام الكبير من خلال إنشاء المكتبة الوطنية ومراكز الثقافة والدراسات والبحوث والعلوم المختلفة.

* باحث كويتي.

❑ المكتبة الإسلامية ❑

من المكتبات التي كنت أتردد عليها أيضا المكتبة الإسلامية لصاحبها: السيد أحمد السيد عابد الموسوي، وكانت تقع في منتصف «الشارع الجديد» شارع عبدالله السالم - كما تقدم - عند مدخل سوق واجف ومقابل مدخل سوق الغربلي.

وكان صاحبها رجلاً وقوراً عالماً بأمور

أحمد السيد عابد الموسوي

الكتب، وقد انتخب عضواً في مجلس الأمة عن دائرة الشرق في أول انتخابات برلمانية تشهدها الكويت عام ١٩٦٣م

ومن الكتب التي اقتنيتها من هذه المكتبة:

١- كتاب البخلاء للجاحظ وهو الكتاب الأول الذي صدر عن سلسلة عيون التراث العربي الذي أصدرته دار الثقافة العربية للتأليف والترجمة والنشر في سورية وطبع عام ١٩٥٥م

٢- كتاب نِثار الأزهار في الليل والنهار - لابن منظور صاحب لسان العرب.

❑ مكتبة السامرائي ❑

موقعها في آخر الشارع فهد السالم وتعد من المكتبات الكبيرة في تلك الفترة وهي فترة الستينيات وقد ترددت عليها عدة مرات واقتنيت منها فيما أذكر: رحلات الأستاذ عبدالوهاب عزام، والذي زار الكويت عام ١٩٥٣م وطلب أن يرى موقع كاظمة وعندما رأى الموقع قفراً خالياً تذكر أمجادها وشهرتها الواسعة عند العرب سواء في الجاهلية أو الإسلام فجادت قريحته الشعرية وقال مرتجلاً:

بكاظمة طوفت في ميعة الضحى
وقلبي إلى الماضين جُم التشوق
أكاد أرى في رملها قبر غالب
وأسمع في الآفاق شعر الفرزدق

واقتنيت من هذه المكتبة:

١- مختارات أحمد تيمور باشا وهي نصوص شعرية منتقاه لكبار الشعراء.

٢- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الألوسي صاحب المؤلفات الغاية في الجودة والإتقان كما قال: قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى في بغداد.

❑ وكالة المطبوعات ❑

من المكتبات التي افتتحت في منتصف الخمسينيات: وكالة المطبوعات لصاحبها عبدالله محمد حرمي، وكان موقعها القديم في شارع الأمير ثم انتقلت في بداية الستينيات إلى شارع فهد السالم بعد افتتاحه.

في البداية كانت تختص بتوزيع الصحف والمجلات والمطبوعات التي تصل الكويت من القاهرة وبيروت ودمشق حيث كان لدى صاحبها توكيلات من معظم الصحف والمجلات التي تصدر من تلك البلدان.

وبعد انتقالها إلى مكانها الكبير في شارع فهد السالم أصبحت تجلب الكتب المنوعة والحديثة، والحقيقة أن هذه

المكتبة وفرت للباحثين والقراء الكثير من المطبوعات في مختلف العلوم والفنون، كما تخصصت بالكتاب الجامعي بالإضافة إلى نشر العديد من الكتب لمؤلفين كويتيين وغيرهم، وكان صاحبها السيد عبدالله حرمي كثير التردد على مصر ولديه صداقات عديدة مما ساعده على أخذ توكيلات لعدد من دور النشر المصرية وتسويق مطبوعاتها في الكويت.

وكنت كثير التردد على هذه المكتبة أقتني منها ما يناسب رغبتي وميولي في القراءة، يساعدني في ذلك المشرف عليها وهو شخص لطيف المعشر طيب المعاملة يدعى إبراهيم وهو مصري الجنسية.

وفي هذه المكتبة كنت أشاهد أحياناً شاباً بدأ يظهر اسمه في الصحف الكويتية ككاتب قصة متميز، كان هذا في الستينيات، وعرفت بعد ذلك أنه الأخ الدكتور سليمان الشطي، ولكن وقتها لم نتبادل الحديث بل نظرات عابرة ويذهب كل منا في طريقه.

وقد اقتنيت من هذه المكتبة كثيراً من الكتب المهمة في الأدب والتاريخ وهي من المصادر الكبيرة والمعتمدة في تخصصها ومنها:

١- نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري واسمه شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب البكري الشافعي أحد رجال الملك الناصر، وكتابه هذا يعد موسوعة تناول فيها مختلف العلوم وقد طبعته دار الكتب المصرية محققاً في ١٨ جزءا.

٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، وهو أهم مؤلف في هذا المجال ويقع في ١٤ جزءا وهو من مطبوعات دار الكتب المصرية

٣- النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ويقع في ١٤ جزءا وهو للمؤرخ إبن تغري بردي وهو أيضاً من مطبوعات دار الكتب المصرية

٤- فيض الخاطر لأحمد أمين في عدة أجزاء وهو عبارة عن مقالات منوعة

٥- القاموس الإسلامي لأحمد عطية الله، صدر منه خمسة أجزاء وصل فيه مؤلفة إلى نهاية حرف العين ولم يكمله حيث عاجلته المنية.

٦- دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي وتقع في ١٠ مجلدات ضخمة.

د. يعقوب الغنيم

٧- تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان.

٨- الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني.

٩- ديوان المتنبي شرح عبدالرحمن البرقوقي في أربعة مجلدات.

١٠- لمحات من تاريخ العالم تأليف الزعيم الهندي جواهر لال نهرو ١٨٨٩ - ١٩٦٤م والكتاب كما جاء في مقدمته: عبارة عن رسائل كان يبعثها نهرو لابنته انديرا غاندي بينما كان يتنقل من سجن إلى سجن في الفترة الواقعة بين اكتوبر ١٩٣٠ وأغسطس ١٩٣٣ ولم يكتف نهرو باختيار الحوادث التاريخية المهمة التي يدرسها الطلاب في المدارس عامة بل تطرق إلى ذكر الأسباب التي تكمن وراء هذه الأحداث بأسلوب قصصي ممتع وهذا هو السر في عظمة هذا الكتاب، وقد طبع بترجمته العربية المكتب التجاري في بيروت طبعة أولى في يونيو عام ١٩٥٧م وطبعة في أغسطس من العام نفسه.

❑ مكتبات أخرى ❑

ومن المكتبات الكويتية التي افتتحت في مطلع الستينيات:

١- مكتبة الأمل وصاحبها الدكتور يعقوب الغنيم، وقد نشرت بعض المؤلفات التي تتعلق بتاريخ الكويت وكان مقرها في منطقة السالمية.

٢- مكتبة بور سعيد ومكتبة النهضة، وهما من المكتبات الكبيرة وموقعهما في منطقة القبلة من مدينة الكويت بالقرب من بعضهما بعضاً نسبياً، وقد اقتنيت منهما بعض المطبوعات اللبنانية الحديثة وقتها.

سياحة الكلمات

لا يمكن للكاتب أن يحصل على إجازة من حضرة الكتابة، وإن سافر فهنالك أيضاً سياحة الكلمات.. لا يقدر أي منهما ترك الآخر لحظة واحدة.. وإن ابتعد الكاتب في سفره للراحة، فذلك ليتأمل ببطء سرعة هذا العصر، وبعقل كل هذا الجنون.. عندئذ سيجد الكلمات سبقته تقف أمامه ممسكة بيدها في حقيبة السفر.

بقلم: عبد اللطيف إبراهيم النصف*

بات من المؤكد للكاتب أن الكلمات هي السائح الأكثرسياحةً في العالم.. لا ينافسها في ذلك أحد.. الكلمة السوّاحة تتفوق على أهم سائح في العالم.. الذي هوعرضة للظروف السياسية أو الاقتصادية أو الأمنية والتي قد تمنعه من استخراج تأشيرة الدخول لهذا البلد أو ذاك، أما الكلمات فهي دائماً وأبداً لا تحتاج إلى الانتظار لاستخراج تأشيرة الدخول إلى أي بلد.. أو أي قلب.. أو أي عقل.. لذا الكاتب متأخر دائماً وأبداً عن الكلمات..

.. يحدث في مرات قليلة ونادرة أن تتعرف الكلمات على كاتبها.. فتنقلب المسألة هنا رأساً على عقب وتصبح الطريدة هي المُطارد.. ما إن يحصل هذا الشيء حتى تبدأ الكلمات.. تتحلق له.. تتزيا له.. تحاوره.. تحاصره - إن تطلب الأمر- كل ذلك من أجل أن يضعها الكاتب في مكانها الصحيح، لتستريح الكلمة بمنزلها الكائن في الجملة الأدبية.

كما وقد يحدث أيضاً أن الكاتب يعيد الحياة للكلمات من أحبائها الكلمات المتوفية التي قد قضت نحبها وغادرت دنيا اللغة، وكأنما

* كاتب كويتي.

الكاتب هنا أصبح إلهاً من آلهة الأساطير ينفخ الروح في كلمات متوفية ويعيدها إلى الحياة من جديد.. يحدث ذلك على هيئة إظهارها بشكل مختلف لم يسبق لها الظهور فيه من قبل.. مثل شراء ثوب العيد الجديد للمفردة.

أما في الغالب والمتعارف عليه والطبيعي، أن الكاتب من يستجدي الكلمات ويطاردها إلى حد التحرش بها لغوياً، وإن لم يجد جدوى من استمالتها إليه يقوم بعد أن خاب مسعاه بتقديم طلب ليستخرج تأشيرة الدخول إلى البلد المعني محاولاً بذلك ليس نسيانها كما يفعل العاشق بل ليتذكرها كما يفعل الكاتب، وبعد أن تتم الموافقة عليه من سفارة البلد يسافر أخيراً.. ليجد نفسه مرة أخرى وقد أصبح بحاجة إلى أن يقوم بتقديم طلب تأشيرة الدخول.. غير أن هذه المرة تأشيرة الدخول من نوع آخر ومغاير..كأن تكون تأشيرة الدخول إلى مشهد طبيعي خلاّب يدمغه على حروف في ورقته.. إلى منحوتة تاريخية متمثلة في تمثال أراد النحات عبرها أن يخاطب شعبه

الكاتب من يستجدي الكلمات ويطاردها إلى حد التحرش بها لغوياً.

بفنه بلغة رمزية، شعر الكاتب أنها تخاطبه وأن التمثال للتو غمز له بعينه دون أن يشاهدهما أحدًا ليكتب عنه.. إلى تفاصيل إجراءات السفر بحد ذاتها التي قد تستفزه للكتابة من بداية إلى نهاية الرحلة .. حيث تزخر بالمواقف رحلات السفرعادةً.. ليستخرج الكاتب من كل هذه العوامل والمشاهدات المختلفة والمتنوعة تأشيرة الدخول إلى بلد المعنى.. بينما الكلمات لا تحتاج إلى أي شيء من كل هذا.. الكلمات في حقيقتها وجوهرها سياحية.. لهذا هي دائماً تتنقل من بلد إلى بلد في سفر متواصل دون أن تتوقف أبداً ولا تنتظر أحداً.

سياحة الكاتب

أثناء موسم الصيف والسفر، وفي أيام شبيهة بهذه الأيام التي نحن الآن بداخلها، جرت أحداث هذه الحكاية

القصيرة.. لذا وددت أن يكون الجزء الثاني من هذه المقالة حكاية قصيرة، وإليكم إياها:

.. ها هي روما..

.. ها هو الآن يجلس وقت الظهيرة على طاولته الصغيرة المتشحة باللون الأخضر الذي نبت حتى على الكرسي المخضّب بالخضار، وعلى مفرش طاولته الصغيرة أصيص لنبتة خضراء لم يتعرّف عليها بعد بالرغم من كل محاولاته في التخمين..

.. تحديداً في مطعم سياحي مزدحم بالسواح نظراً لموقعه الملتصق من نافورة تريفي الشهيرة وعلى بعد عشرة أمتار فقط يفصله عنها دهليز ضيق يعبر منه السياح من دون توقف ومن كل أقطار العالم..

.. ها هو الآن مستمتعاً بالأجواء من حوله وبكأسه الكبير من عصير البطيخ الأحمر الذي بداخله شرائح كبيرة مقطعة يطعنها بعود من الخشب ويلتهمها شريحة تلو الأخرى على مهل.. وفي الوقت نفسه يقطر ماء البطيخ الأحمر المعروف بغزارته من تلك الشرائح -كعملية تقطير في

مختبر- إلى أن يمتلئ قاع الكأس فيكون قد أكل البطيخ والآن يشربه عصيراً..

..على الطاولة الصغيرة المزدحمة بشكل محبب.. وضع الكاتب السائح علبة السجائر وهاتفه النقال ومحفظته فوق بعضهم بشكل عامودي لعدم وجود مساحة كافية لجهاز الحاسوب الذي يطبع عليه روايته. كان الكاتب السائح يكتب تارةً.. يشطب تارةً.. يرتشف عصير البطيخ تارةً.. يمز سيجارته تارةً.. وهكذا..

اليوم قد مضى على وجوده في روما عشرون يوماً قضاها لوحده دونما شيء يعكر صفو سياحته أوكتابته على الاطلاق.. كان الكاتب السائح فرحاً في هذا المكان الذي أصبح من اليوم يراه مكانه المفضل كما أسرَّ لنفسه..

تناول الكاتب السائح علبة سجائر أخرى مغلقة من شنطة حاسوبه السوداء المفتوحة.. كان يسندها على الحائط خلفه ثم عاد يكتب منغمساً في عالم روايته ..

.. ها هم ثلاثة من رجال الشرطة المحلية يقفون بعيدًا في الجهة المقابلة يراقبونه منذ أن جلس.. وأخيرا اقتربوا منه..

قال الأعلى رتبة من بينهم لأن بيده جهاز اللاسلكي:

- مرحباً

أجاب الكاتب السائح:

- مرحباً

تلقف الحديث الضابط متوسط الرتبة من بينهم:

- هلا أتيت معنا إلى داخل المطعم؟

- حسناً

نهض الكاتب السائح من مكانه للذهاب مع الشرطة المحلية إلى داخل المطعم.. يعيد مشاهدة تسجيل الشريط الخاص بذاكرته منذ أن جلس.. محاولاً أن يفهم لماذا هو بالذات؟! لكنه لم يشاهد شيئاً..

.. يشير الأعلى رتبة من بينهم بيده الممسكة بجهاز اللاسلكي إلى الشنطة السوداء:

- اجلبها معك

..حمل الكاتب السائح شنطته السوداء على إحدى كتفيه ودخل معهم إلى داخل المطعم .. سار كأسير أمامهم مطرقاً بنظره يحدق بالأرض.. ومع ذلك استطاع أن يرى من دون أن يلتفت -من شدة الإحراج- الطاولات التي كانت بالقرب منه.. وقد ارتفع فيها الهمس إلى مرتبة الهرج.. والرؤوس المتباعدة تقترب من بعضها شيئاً فشيئاً..

يحدث في مرات قليلة ونادرة أن تتعرف الكلمات على كاتبها

.. وصل الكاتب السائح وأفراد الشرطة المحلية إلى حائط مسدود في داخل المطعم.. وعند هذا الحد طلبوا من الكاتب السائح التوقف.. وبعد أن استدار وأصبح في مقابلهم، قال الشرطي الأقل رتبة من بينهم:

- ناولني هويتك؟

قال الضابط المتوسط الرتبة من بينهم:

- ناولني الشنطة السوداء؟

.. أما الأعلى رتبةً من بينهم أخذ من الشرطي الأقل رتبة من بينهم جواز سفر الكاتب السائح وراح على الفور يتحدث باللاسلكي الذي بيده وهو يقوم بتهجئة حروف اسم الكاتب السائح..

الكاتب السائح كان هادئاً، فقط يتأملهم وهم يقومون بإجراءاتهم الأمنية المستحقة في التفتيش.. عندئذ خطرعلى باله سؤال:

.. يهمهم..

- ماذا لو كان قد كُتب في جواز سفري «المهنة : كاتب» أسوةً بجوازات كتّاب دول العالم، هل كان سيحدث كل هذا معي؟

.. مر الوقت بتثاقل ولازال الكاتب السائح محافظاً على رباطة جأشه من منطلق ثقته بنفسه أنه لم يفعل شيئاً.. تنامت لديه هذه الثقة بشكل أكبر حين بدأ يلاحظ النظرات القلقة التي كانت منتشرة على وجوه الشرطة المحلية..ها هي تتلاشى ليحل محلها الابتسام.. ها هي ألسنتهم أصبحت ترطن بالإيطالية بأنواع الاعتذار.. ها هي صاحبة المطعم التي كانت تقف بعيداً وتنظر إلى الكاتب بنظرات مريبة انظمت معهم لتترجم وتعتذر وتدعو الكاتب السائح لقبول أن تكون فاتورته على حساب المطعم لكنه رفض بإصرار..

.. ها هم فريق الشرطة المحلية بعدما تأكدوا من سلامة الكاتب السائح وعدم سلامة فراستهم يغادرون المكان.. بينما الكاتب السائح ظل واقفاً مشدوهاً في مكانه ينظر إلى شنطته السوداء..

.. يهمهم..

- هل هو لون شعري الأسود؟ أم هو لون الشنطة السوداء؟ أم هو لون حظي الأسود؟ أم كل هذه العوامل امتزجت مع بعضها لتخرج أخيرا بهذا اللون؟ قد كنت في خضار من المكان والفكر إلى أن دخل علي اللون الأسود المقيت وصبغ عشب اللحظة.. حقيقة.. لا أعلم لِمَ حدث ذلك معي!

.. ما يعلمه الكاتب السائح هو أنه لم يقبل اعتذارهم.. بسبب هذا الموقف المحرج والمثير للشبهة.. غادر المكان الملهم جداً دون عودة.. وإن كان سيكتب فيه من خوالد الأدب التي تصل إلى نهايتها لكنها لا تنتهي.. فكرامة الإنسان هي الأهم.. الكاتب السائح تذكر هنا أنه ليس من حقه أن يعترض على شيء.. لكنه تعلم ألا يعود إلى شيء.. كتسجيل موقف حضاري متمدن هو بالطبع من حقه.. وهكذا ظل الكاتب السائح حتى آخر أيام السفر، يمر من أمام المكان لكنه لم يجلس فيه رغم كل المغريات ودعوات صاحبة المطعم له.

الأديبة
فاطمة يوسف العلي
تضع في المرأة مصباحاً يضيء عتمة الطريق

بقلم: علي عبد الفتاح*

الكاتبة الكويتية د. فاطمة يوسف العلي.. قلم مبدع.. جرىء في مواجهة قضايا الواقع يسكن في أعماقها دائماً روح التأمل.. والرغبة في البحث وتعميق قيم الحب والجمال والحرية.. تحلق في فضاءات الإبداع.. لترصد ظواهر الواقع العربي وتتابع مسيرة المرأة وكفاحها وتقف شامخة ضد القهر .. ومتمردة على سلطة الرجل إذا كانت ظالمة.

ولا يمكننا التحدث عنها كمبدعة في الأدب، دون أن نتطرق إلى نشاطها السياسي والاجتماعي في مجال حقوق المرأة، والدفاع عنها ليس في الكويت فحسب وإنما في العالم العربي كله، حيث تصبح قضيتها الأولى التي تعبر عنها في المؤتمرات وفي أدبها القصصي ومقالاتها المتعددة في الصحف العربية.

طفولة شاعرية

د.فاطمة يوسف العلي تعلمت منذ طفولتها كيف تقرأ وتكتسب ثقافة منفتحة على الآداب العربية والأجنبية، فامتد حبها خارج ذاتها لتتعاطف مع كل الدمعات المقهورة والقلوب الجريحة وعذابات الوطن في ظل المحن والغزوات.

ولا غرابة في شاعريتها الرقيقة

* كاتب مصري.

فاطمة يوسف العلي

النابضة بالحب والحنان، وإحساسها المرهف الجميل، فقد ولدت ونشأت في الكويت القديمة على ضفاف الخليج "فريج سعود" وتقول: "كان منزلنا قريباً من البحر حيث كنت أرقب السفن الشراعية التي تجلب التمر وغيرها من مواد التموين".

وفي كل صباح كانت تتأمل أمواج الخليج تعانق الضفاف وتلمح أسراب الطيور البيضاء تحلق فوق صفحة البحر، فتغيب في عالم سحري الألوان، تحلم أن تتحول إلى طائر حر يرسم أحلامه على صفحة السماء الزرقاء.

هذه اللوحة الطبيعية ساهمت في تعميق أفكارها عن الحياة.. وصراع الناس.. والمراكب المسافرة في بحر الحنين واشتياق الصيادين إلى المرافىء الآمنة بعد رحلة شقاء مع البحر.

البداية شاعرة

كتبت في مرحلة مبكرة من حياتها مجموعة من القصائد الرومانسية، واتجهت إلى قراءة مشاهير الأدب العربي، وساهمت في المسابقات الثقافية بالمدرسة بكتابات عبرت فيها عن مشاعر طفولية بريئة تحلم بالحب النقي والحياة الجميلة.

كانت مشاهد البحر والمراكب والطيور كل صباح تدعوها إلى التأمل بمشاعرها وخيالها وتعشق الطبيعة في سكونها وعنفوانها.. في نسائمها الحريرية.. وعواصفها الرملية لتعبر عن فكرة أو مدخل لقصيدة بسيطة تغنيها للقلوب الحزينة الباحثة في

الظلام عن نجمة من نور كما يقول الشاعر الانجليزي الرومانسي وردزورث: "أكبر متعة عندي أن اتأمل في الصباح الجداول وهي تترقرق في أحضان الطبيعة وأشاهد الطيور الأليفة وأسير وحدى أعانق الشجر والورد والنهار المشرق، فلاشك في كل ذلك قصة رائعة".

وفاطمة تملك قدرة على أسر مشاعرك.. إذا جلست أمامها بحت لها بكل أسرار حياتك دون أن تدري.. في مجلسها عطر يفوح.. وقلب ودود.. وروح تحتوي كل المعاني الجميلة فلا تملك إلا أن تعترف بما في قلبك أو حياتك من مواجع وآلام.

اول رواية

وأعتقد من خلال قراءتها المبكرة في الأدب الرومانسي استطاعت أن تلملم خيوط روايتها الأولى وتنسج أحداث أول رواية لكاتبة كويتية وهي مازالت في السابعة عشرة من العمر فظهرت روايتها: "وجوه في الزحام" 1971.

رغم أن الرواية نُسجت تفاصيلها بعفوية كاتبة لم يكن لها دراية أو خبرة في القص الدرامي، إلا إنها أثارت قضايا كثيرة تتعلق بزواج الشباب الكويتيين من الأجانب مع بعض اللمحات عن القضايا القومية ومنها قضية فلسطين.

كما تجلت قضية المرأة التي تسيطر عليها ثقافة العادات والتقاليد البالية، بحيث يصبح الرجل هو المسيطر على مصير المرأة وحياتها، دون أن يكون من حق المرأة المظلومة أن تشكو أو ترفض أو تتمرد.

واستطاعت الرواية أن تؤثر في المتلقي ليتعاطف مع قضية البطلة "أحلام" التي فقدت فارس أحلامها بعد انتظار مؤلم وذهبت إلى دروب مسدودة. وتذكرك الرواية بكتابات إحسان عبد القدوس في "الطريق المسدود" ويوسف السباعي في "نادية" ومحمود تيمور في"سلوى في مهب الريح". فالتجربة الأدبية كانت تبشر بمولد كاتبة كويتية اكتسبت روايتها دور الريادة.

في كتاباتها روح التمرد.. والتحريض ضد سلطة الرجل.. والنضال من أجل القيم الأخلاقية

وجهها وطن

وظلت قضية المرأة الهدف الذى تسعى إليه الأديبة فاطمة يوسف العلي؛ لتعبر عن المشاعر الخفية للمرأة وأفكارها في علاقتها بالرجل، وكيف تبدو كائناً يقاوم وحيداً في العراء. فهناك عراقيل عليها أن تجتازها وتتغلب على مشاكلها دون أن تجد عوناً من شريك حياتها، فكان عليها أن تدين مجتمعاً يهمل مشاعر المرأة ويراها ليست أكثر من تابع للرجل تعيش في ظله وتخضع لسيطرته الغاشمة.

فجاءت مجموعة "وجهها وطن" 1995 لتبوح المرأة بمزيج من مشاعر الخوف والألم والعذاب والغيرة والرفض لكل ما يحاصر موقف المرأة من أفكار قديمة وعادات بالية. فهل نتصور كيف يقف الرجل في وجه زوجته التي حققت نجاحاً كبيراً في عملها وحياتها،

ويقرر حرمانها من هذا العالم الجميل الذى تحقق فيه ذاتها؟ ربما حقداً عليها أو غيرة منها؛ لأنه في حياته فشل كثيراً، وعبرت عن تلك الفكرة في قصة "سقط سهواً" من تلك المجموعة.

وتطرقت إلى قضية عنوسة المرأة في قصة "البومة"، ومعاناة القهر الذي يؤدي بها إلى اقتراف جريمة في قصة "عروس لم تظهر بعد"، لكن في قصة "يانوم" صورة واقعية عن حياة المرأة في عالم حسي يخلو من قيم الرحمة والحب والعطف والرقة والحنان.

ومن أجمل قصص المجموعة "وجهها وطن" الرمز يحتل مستوى فني ناضج؛ لتصور لنا مدى تطور موقف المرأة حين يمتد حبها إلى وطنها، وتقف لتناضل جنود الاحتلال الذين زحفوا على الكويت في الثاني من أغسطس 1990م.

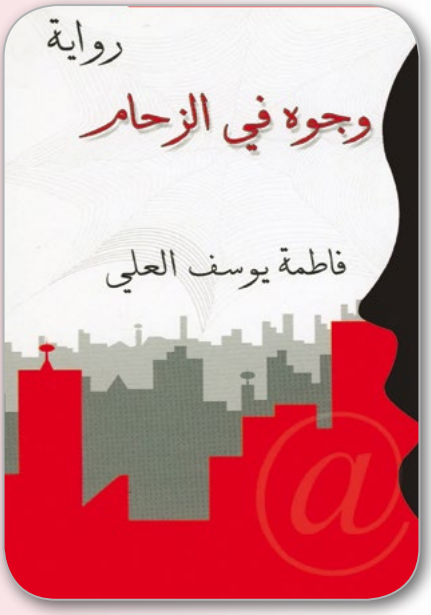

وجه القمر

أما مجموعتها القصصية "دماء على وجه القمر"، فهي وثيقة تسجيلية لدور

قررت فاطمة أن تنتقم لصورة أحلام بطلة روايتها الأولى، وتشق أمامها درباً من نور العلم وصوت الحرية ورياح التمرد.

المرأة أثناء الغزو العراقي في عهد صدام حسين. القصص ترسم لك في براعة موقف المرأة التي كانت تجلس حزينة تشكو لذاتها حزنها وضياعها، تحولت من خلال تجربة الحرب القاسية إلى مناضلة تقاوم وتشترك مع الرجل في أعمال المقاومة وتوزيع الطعام ونشر القصائد والتعليمات وتوزيع المنشورات.

فهي امرأة تجازف بحياتها وتخاطر مثل الرجل في كل موقف وربما كان دور المرأة أثناء الحروب والمحن مؤثراً أكثر من الرجل.

التحريض والتمرد

وفي مجموعة "تاء مربوطة" 2001م، قررت فاطمة يوسف العلي ألا تتسامح مع الخلل الاجتماعي والمفاهيم الخاطئة التي تسود المجتمع ويتقبلها الجميع دون مناقشة أو جدال، ومن هنا تتسم القصص بالاتجاه التحريضي والتمرد على العنف ضد المرأة ومحاولات تهميش دورها الحيوي وغلق الأبواب في وجهها حتى لا تحقق ذاتها ويكون لها صوتاً في البرلمان والمجالس الشعبية.

قررت فاطمة أن تنتقم لصورة أحلام بطلة روايتها الأولى، وتشق أمامها درباً من نور العلم وصوت الحرية ورياح التمرد، وتسخر من واقع الرجل في قصة "عندما كان الرجال حريماً للسيدة" وتطرح الكاتبة تساؤلها: لماذا لا يكون للمرأة عدد من الأزواج مثلما يسمح للرجل ذلك؟ وبذلك تثير ذهن القارىء بأفكار كثيرة عن موقف المرأة وحقوقها المهدورة دائماً.

عالجت الكاتبة قضايا كثيرة مثل تعدد الزوجات وعنوسة المرأة، وظلم الرجل وتلاشي مشاعر الحب في الحياة الزوجية، والبحث عن الحرية في التعبير والبوح، ومقاومة انتهازية الرجل وعبثه

في الحياة مع النساء، بحيث يتزوج ويطلق كأنه يتاجر في أجساد النساء دون أن يحاسبه قانون أو تقاليد.

ومن أجمل قصص المجموعة "تاء مربوطة" حيث تجد بطلة القصة أثناء سفرها بالطائرة أن عليها أن تترك مقعدها وتجلس في الخلف، لأن المقاعد الأمامية للرجال فقط وليس هناك اختلاط في الطائرة.

صور القهر

وتشعر البطلة بالقهر وتنظر إلى بعض النساء فتسمع منهن كلمة "هذا نصيبنا ماذا نفعل؟" ولم تعترض امرأة واحدة على هذا المشهد، كلهن صمتن ووافقن دون اعتراض أو رفض أو حتى طرح سؤال يتحدى القرار الجائر على المرأة.

وفي مجموعة "لسميرة وأخواتها" تمضي فاطمة يوسف العلي في كشف الستار عن عذابات المرأة في المجتمعات العربية، فهي مازالت تفتقد دورها الطليعي وتواجه أزمات سياسية وإرهاباً فكرياً وتطرفاً دينياً

يحاول عزلها من المجتمع، وأن تظل في البيت بلا قيمة وخادمة للرجل. وتطرح فاطمة قضايا المرأة بحرية وجرأة وصدق من خلال القصة القصيرة ولا توجه الإدانة للرجل وحده، وإنما للأنظمة الديكتاتورية والأفكار الرجعية في عالمنا العربي ومحاولات إقصاء المرأة عن واقع الحياة حتى تصبح "الموؤودة" كما جاء في قصتها القصيرة.

ثورة ضد الفساد

وتؤمن الأديبة فاطمة أن الإبداع فن التمرد واختراق للسياق المألوف، والقصة القصيرة ثورة ضد فساد الأخلاق وفساد الفكر.. والكتابة محاولة لتنوير وإثارة الوعي وتحريضه ضد القهر والكبت، وتحريره من أغلال الجهل والتخلف والاستبداد الفكري.

ولذلك كانت مجموعتها القصصية الأخيرة "بقايا" الصادرة عام 2012 همسات حنونة.. ودموع دفينة.. وتأملات صوفية.. وفلسفية.. ونظرات حالمة في الآفاق.. وتوقعات أن يسقط المطر بعد لحظات غائمة. وترسم الكاتبة صوراً عديدة لمواقف المرأة في الحياة، وكيف تقاوم تحديات وصعاب وكيف ينهار الحب حتى يصبح مجرد بقايا في عالم النسيان.

ونلاحظ أن قصص المجموعة أكثر كثافة وعمقاً في التصوير والفكرة، تجسد رموزها مع توظيف فني ومستوى عال للحوار والاسترجاع الذهني والمناجاة النفسية والسرد الدقيق لتفاصيل الموقف واللغة الشاعرة، حتى

> **كاتبة لا تتسامح مع أدعياء الثقافة ... ودعاة وئد إبداع المرأة .. والتطرف الفكري في العالم.**

تكاد تقرأ القصة القصيرة واللغة المحلقة التي تغرف من ينابيع الرومانسية وفيض الأحاسيس.

وقد ذكرت من قبل أن فاطمة يوسف العلي شاعرة جميلة قبل أن تكون قاصة قديرة فاقرأ كيف تصبح الكلمات لغة شاعرة في قصة "بنت":

"لم تصرخ حين استقبلت الدنيا منذ سنوات الاكتمال.. كان صوتها كصوت كروان.. والبسملة دستور عمل وقانون إنجاز.. ترمق الريح بنظرة مهدهدة فتنام.. وحين يصطلي الرابضون بجذوة النهار.. تخبو عند قدميها أوردة الشمس الحارقة.. تتناثر نسمات للمسير".

واللغة الشاعرة فسّرها العقاد في كتاب بهذا الاسم، قال فيه: "إنما نريد باللغة الشاعرة أنها لغة بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية

والموسيقية، فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشعراء".

وهناك ملامح صوفية وفلسفية في تلك المجموعة القصصية تكشف عن فطرة الإنسان نحو الخالق وإيمانه الشديد وانسياب روحه في السماء، باحثة عن أفق من ضياء ودرب من الهدى والصلاح. شخصيات تواجه المحن بقلب خاشع.. ونفسٌ يغلفها التقوى كما في قصص: "حقيقة" و"غزل" و"براءة" و"مباغتة" وغيرها من قصص مجموعة "بقايا".

ملامح فلسفية

أستطيع أن أقرر بكل بساطة أن د. فاطمة يوسف العلي قد عبرت عن فلسفة صوفية عميقة، واجتازت مستويات رفيعة خلاقة في فن القص الأدبي، وهذا يأتي بصورة تلقائية من خلال خبرتها الحياتية المنفتحة على العالم دون تمييز لجنس أو دين أو مذهب، وتلك سمات المبدع الكبير

الذي يحتوي الإنسانية في روحه وأدبه ويقول تولستوي: "ما أروع أن تحنو على طفل صغير أو عامل فقير أو ثري بائس بثروته وتفتح قلبك على الكون في تناغم مع آهات الحزانى وأنين الشجر العاري.

وقد تعلمت فاطمة أول درس إنساني منذ طفولتها حين تقول: "في الكويت القديمة كان البيت في جوار البيت يلاصقه ويحاذيه بيت كويتي لصديق مصري وبيت لصديق سوري وبيت لصديق لبناني. كان الشارع، كان السوق، كانت المدرسة، كان الجامع، كانت الكنيسة، كانت الأرجاء الكونية كلها تفوح بالعبير العربي وتبوح بالصوت العربي".

رائدة التنوير

ولذلك لم تكتف فاطمة يوسف العلي أن تكون رسالتها من خلال الأدب في القصة والرواية والشعر والمقال والدراسات وإنما تعتبر من الشخصيات العامة التي تشارك في المؤتمرات والمنتديات والتجمعات العربية والعالمية لمناصرة حقوق المرأة.

فإذا كانت فاطمة قد امتلكت الريادة في فن الرواية، فهي أيضاً رائدة من رواد التنوير من خلال دورها المتميز وحضورها المؤثر في الدعوة لتحرير المرأة من الجهل والخرافات ومقاومة الحصار حولها، حيث تؤكد البحوث والدراسات التي قدمتها في مؤتمرات المرأة إنها قد وهبت فكرها وحياتها لتلك القضايا.

وأتمنى أن يوفقني الله وأنجز كتاباً خاصاً عن إنجازات الأديبة فاطمة يوسف العلي ودورها الكبير في الدفاع عن قضايا المرأة.

وقد صدر عن تجربتها الأدبية عدة كتب منها: "فاطمة يوسف العلي رائدة الرواية النسوية" من تأليف حسن حامد، وكتاب آخر أنجزه الأديب محمد جبريل بعنوان "الصوت الهامس".. هذا بالإضافة إلى مئات المقالات والحوارات التي نشرت عنها. أتمنى أن أكون قد قدمت للقارىء العربي بعض ملامح أديبة اخترقت كل حصار وخرجت من ينابيع الأدب الصادق لتؤكد أن المرأة في الكويت والعالم العربي تشق درب النور وتعلو إلى مستويات فكرية وإبداعية عالية.

شعر و نصوص

الْحَـجُّ

(كُتبت في مشعر «منى» بمكة المكرمة)

د. فاطمة العبدالله العبيدان*

رَكــنٌ عظيْـم مــن رَكائـزِ ديننـا
أهــداهُ ربُّ النــاسِ للإنســانِ
فَبِــهِ يعــودُ المــرء أبيــضَ ناصعــاً
وبــهِ شــفاءُ الــروحِ والأبــدانِ
ولقــد ســأَلتُ اللهَ مــن أفضالِــهِ
«حجّــاً» لأكْمِــلَ خامــسَ الأركانِ
فَيَسَّــرَتْ بِاسِــم الكريــمِ مناسِــكاً
بســهولةٍ وصعوبــةٍ فــي آنِ
والله أكملهــا بجهــدٍ واضــحٍ
لأخٍ «وابــنٍ صالــحٍ متفــانِ»
وبقيــةُ الُحجــاج إخــوانٌ لنــا
مُتضامنــون الصــف كالبُنيــان
يَســمَونَ للعليــاءِ فــي أخلاقِهــم
وكلامُهــمْ درٌّ مــن «القــرآنِ»
وحديــثُ ســيدنا محمُــد هاديــاً
للخلــقِ بالإســلامِ والإيمــانِ
أدعــوكَ بــاربَّ تجــود بجنــةٍ
للأهــلِ والأحبــابِ والخــلانِ

* شاعرة كويتية.

ولنـا جميعـاً بعـد حَـجٍّ خالـصٍ
للهِ ذي الإجـلالِ والسـلطانِ
فـي «حملـةٍ» بالخيـرِ أَدت دوَرهـا
فَتَميَـزت بالصـدق كالعنـوان
وتحملـت معنـا مشـقة رحلـةٍ
للهِ نعبُـدُهُ بخيـرِ مـكانِ
فـي مكـةٍ «طُفْنـا» بقلـبٍ خاشـعٍ
«والسـعي» بيـنَ البيـتِ والأركانِ
ووقوفُنـا فـي ظـلَّ رحمـة رَّبنـا
«عرفـاتٌ» مغفـرةٌ مـن الرحَمـنِ
«ومشـاعُر» قـد خُصِّصَـتَ لدعائنا
«والرجـمِ» والإذلالِ للشـيطانِ
فالحمـدُ لله الـذي فـي حَمَّـدَه
شُـكر يزيـدُ الخيـرَ بالعرفـانِ
فَهـوَ «الشـكورُ» لنـا ونحـنُ عبيدُهُ
وجزاؤنـا الإحسـانَ للإحسـانِ
وسـعادةٌ غَمَـرتْ جميـع قلوبنـا
غسـلَتْ «بزمـزم» سـائرِ الأحـزانِ

حَجَّ الحجيجُ

م/فهد بن عيد الكريباني*

حَجَّ الحجيــجُ وَحَجَّ القلــبُ من ألمٍ
إلى المليكِ رجـاءَ العفوِ عن لممِ
اللهُ يعفُــو وعفــوُ اللهِ غايتُنَــا
فيَا عَـفُـوُّ اعْـفُ عنَّا أنــتَ ذو كـرمٍ
النَّاسُ يســعونَ ســعيًا في مناسِــكِهم
وقـد سعيتُ إلى الرحمنِ من نَـدَمٍ
يــا ربِّ إنِّــي ضعيــفٌ آبــقٌ نَــدِمٌ
للعفوِ يـا ربِّ محـتـاجٌ وذو نهمٍ
أحتــاجُ عفــوَكَ يــا منَّــانُ يــا أملــي
فالفضلُ تؤتيهِ لم يـأخـذْهُ ذو هِمَمٍ
أخطأتُ والعفوُ من أوصافِكم ولكمْ
فـامْـنُـنْ عـلـيَّ بـعـفـوٍ غـيـرَ منتقمٍ
يا مَــنْ لهُ الحمــدُ والســلطانُ مُنفردًا
اغـفـرْ لـعـبـدٍ مُـقِـرٍّ تـائـبٍ نَـدِمٍ

* شاعر كويتي.

اللغة الفرقدية

بقلم: آمنة أشكناني*

والنعت ! والصمت! أهكذا بنا ناكفت،،
يا مَنْ يختزل في معنى السحر إذا تشتت

يا رب الغسق والفجر

وإن صمتنا نحن،،
نُذهلُ من بعد ما نكابد،،
يشعشع حسن الشعاع ما بين رباب جمعتكَ !

يا فضل على البرية،،
يا رازق العطية!
يا رب الغفران إذا ما زل إنسان
يا رب خير مَنْ خلق في ارتسام حروف اللسان
على خير مَن خلق ما بين ثقليه من الإنس والجان،،
لا، إنها لحقيقة محمدية!
على شطآن القوافي تتأله لغتي! ولم أعِ أنها معضلتي،،

* كاتبة كويتية.

ما بين دفتي آية روح وريحان،، أتأمل كيف حال! وكيف حالِ كإنسان!!

إلى نهاية آية الفجر،، وجماله في شفعه و وترهِ!!

وغياهب الظلمات أصبح نوراً على العالمين!

يا من كابدت في لغة قريش وناكفت بألد ما عند بني إسرائيل؟

يا حمّال الأوجه قل لي:

أفي اختزال السرمد في سوركِ معانٍ تضرب على قيثارة حزن الأنبياء،

أولغُ زليخا بيوسف وحب يعقوب لراحيل!؟

إنها لغة قرآني! لا تجادلوني!!! في نفحات حزن الأوصياء

يا مُليّن زبر الحديد لداؤد!

وإنه لرمز وسر يسلب النُهى ويرجع الأهواء لعقولها ويا منبع استكفئ به الولعا،،

تَفيض! تفيض! عقلك الفعال استفض!!

واستفاض عن الأول وتاسوعياته!!!

وصيرورة تنقسم وتتجلى في تراكيب الأنام عن الذات

وكما قال مولى الموحدين! «يا من دل على ذاته بذاته

وتنزه عن مجانسة مخلوقاته وكف عن ملاءمةِ كيفياته»!!

يا رب من أنا أمامك!!!

لست سوى أمة من إمائك!!!

لم يفهموكَ!! ولن يفهموكَ!! ظلموا عدالتك وخيبوا ظن أنفسهم فيك وما أنت بذلك!!

وعلى القلب قفل يريد مفتاحاً!

قفل انتظرك منذ دهور وتيه ما بين تفاعيل أحاجي السماء!

مُدركٌ! مدركٌ!! يا رب

كن أوجي في لعنة الأزمنة

كن رمزيتي لمن ليس لديه من الحيل ضعفا سوى التوتر

ما خاب من لجأ إليك بحسن التوكل.. يارب.

قصة

تشتبك العيون بالدهشة !

بقلم: منى الشافعي *

خمسة أشخاص في هذا المكان الكئيب. صوت ماكينة أرشد القديمة، يصيبني أحياناً بالغثيان. إبريق الماء الكهربائي قلما يهدأ رنينه؛ شاي، قهوة، دارسين، طوال اليوم. عادة تزداد الطلبات على برسيلا، مع ازدياد حرارة شهر أغسطس ورطوبته. يااااه.. صدئنا في هذا السرداب الشاحب العتيق.

قبل أن أنهي آخر عملية حسابية في جهاز الكمبيوتر القديم، فجأة توقف نبضه. فرصة لأستريح قليلاً من تلك العمليات الحسابية المعقدة.

تحركت قليلاً من مكاني. اليوم الزميلة أم متولي نشطة في تركيب الزراير وكوي المراييل المدرسية. التفتت نحوي، طلبت مساعدتي في عدّ المراييل.

العدد اليوم كبير، نصف ساعة ولا زلت أعدّ وأرتب؛ يبدو لأنها الدفعة الأخيرة لهذا الفصل، الدوام المدرسي على الأبواب.

آآآآه، تذكرت، اليوم أيضاً، يوم سعدنا، كما قال زميلنا المندوب عايد. يا له من سعد.. سيحضر العم أبو أحمد، بعد صلاة العصر، ومعه مرتباتنا التي تأخرت خمسة أشهر. خلال هذه المدة لم نرَ وجهه، ولم نسمع حتى صوته، كلما أسأل عايد عنه، يرد:

– حتى الشيطان يعجز عن العثور عليه يا أم دانية، لا يستقر في مكان، كلما أتصل عليه، وإن رد عليّ، يصرخ في وجهي ويقول: «لا تزعجني أنا خارج الديرة، مشاغلي كثيرة».

(*) قاصة وروائية كويتية.

شيء طبيعي، تعودنا عليه، منذ عملي هنا، من عامين ونصف، والتأخير وارد، مع أن الإنتاجية كبيرة في هذا المشغل، على تواضع أدواته. أبو أحمد إنسان بخيل، دائماً يتأخر بصرف مرتباتنا ومستحقاتنا. على ما أذكر في العام الماضي، سلمنا مرتباتنا قبل انتهاء الشهر بيومين! صافحنا وجهه بابتسامة غير معهودة.. يردد:

- تستاهلون، هذا شهر رمضان، مبارك عليكم الشهر وعساكم من عواده.

كانت معجزة بالنسبة للجميع في هذا القبو الخانق.

حين انتهيت من العد والترتيب، وقبل أن تشكرني أم متولي، فضفضت:

- أحمدُ ربَّنا.. صاحب الملحق راجل طيب، صبر عليّ المدة دي كلها.. النهارده وأنا مروحة، أول حاجة أعملها حشكره وأسلمه الإيجار.. وبعدين أبشّر متولي، عايز كم حاجة يشتريهم، ده بقه راجل، يا أم دانية، وطلباته زادت.

عادت، إلى تركيب الأزرار، أكثر نشاطاً. سرحت قليلاً وأنا أنظر إلى ابتسامة أم متولي التي تزين وجهها المريح. ابنتي دانية محتاجة أكثر من غرض، مراهقة وطلباتها لا تتوقف. وعدتها هذا المساء بشراء كل احتياجاتها من سوق السالمية القريب من سكننا. والأهم سأسدد كل ديوني

لصديقتي الكريمة أم فهد. حتى أنني بالأمس خجلت منها حين دعتني وابنتي على الغداء، تحججت بأنني أعمل ساعات إضافية في المشغل.

عدت إلى الكمبيوتر، أضغط على الأزرار المتآكلة علّه يستفيق، بعد أن طلبت من برسيلا أن تذهب إلى البقالة الملاصقة للسرداب، وتشتري لنا عصير ليمون، نرطب به أجسادنا التي أنهكها حر شهر أغسطس اللاهب. افترت شفتاها عن ابتسامة، أراها للمرة الأولى منذ عرفتها. مسكينة برسيلا تنتظر صرف مرتباتها حتى تستطيع أن تسافر إلى بلدها، التي تركتها قبل أربعة أعوام، وتركت صغيريها عند أمها العجوز.

كرشنا، يشكرني بهزة رأسه الهندية على علبة العصير. منذ عرفته وهو يعمل بجد في تفصيل الملابس؛ لتوفير مهر ابنته التي ستتزوج بعد شهرين. استضاء وجهه حين أخبرته بصوت فرح:

– هذا المساء، ستكمل مهر ابنتك، وستتزوج في موعدها.. خلاص ابتسم يا كرشنا.

ابتسامة أرشد، كانت مضطربة قليلاً وأنا أقدم له علبة العصير، استدركت أنه يعاني من مرض السكري، ويمنع نفسه من كل مشروب به سكر. حتى أصبح الشاي الخالي من السكر، مشروبه الدائم طوال يومه المرهق وهو يخيّط عشرات المراييل المدرسية المكومة أمامه. وكي أخفف عنه بعض تعبه وقلقه، رددت:

- خلاص يا أرشد، بعد كم ساعة، ستدفع باقي تكاليف سفرة الحج إلى الحملة.. بس هاااا.. لا تنسَ علب ماء زمزم كما وعدتنا. اشرب هذا العصير لن تضرك علبة واحدة.. يالله احتفل معنا، ما سمعت عايد .. يقول هذا يوم سعدنا.

أخذ العلبة من يدي وابتسامته تسبقه.حين اقتربت الساعة الثانية بعد الظهر، امتلأ السرداب بالهمس. العيون منصبة على باب السرداب المشرّع.

فجأة.. صوت أقدام سريعة تطوي الدرج. يبدو أنه عايد يبشرنا بوصول الفرج والسعد. عايد يحلم بمستحقاته المتأخرة، حتى تفرح والدته العجوز، فزوجته حامل بطفله البكر، وعلى وشك الولادة.

تزداد الخطوات سرعة.. تشرئب العيون، تبتسم الشفاه، تقترب الخطوات.. عايد أمامنا يرتجف، وقد اصفر وجهه.. يتمتم بكلمات شبه مقطّعة.. مخنوقة، ثم وهو يلهث:

- أه أه أل ب لد ية .. البلدية.....)

يقف ثلاثة رجال على مدخل السرداب، يلقون التحية. ثم:

- معكم مفتشو البلدية، معنا أمر بغلق السرداب وتشميعه، لممارسة عمل مخالف للقانون.. وغير مرخّص من الجهات المعنية.

الآخر يتحرك نحونا ليقول:

- الرجاء ترك ما بأيديكم على حاله، وجمع أغراضكم الشخصية، وتسليمي بطاقاتكم المدنية، وتفضلوا بالخروج معي إلى المخفر، لتسوية أوضاعكم.

تشتبك العيون بالدهشة.

يطوف الصمت برائحة الخيبة. أشعر أن داخلي قد اشتعل شيباً قبل شعري !.

كلب وثلاثة أشباح

بقلم: لطف الصراري*

في واحدة من الأوراق المتغضنة التي سقطت من جيبه، كتب السيد مرزوق زمعر بعض الأفكار التأملية عن نفسه؛ "مجرد أفكار" كما يسميها، لكن طبيبه، يعتقد بأنها "أفكار فلسفية". كان يردد ذلك أثناء حديثه للسيدة زمعر التي تمسك بكتلة دائرية من الأوراق في يديها، بينما يحاول رجلان عملاقان تكبيل زوجها لرميه في مقصورة سيارة إسعاف.

أبرز ما في أفكار مرزوق، حديثه عن "لحظة فارقة" ظل يطاردها طيلة حياته، إضافة إلى الأحداث التي مرّ بها في آخر يوم قضاه كرجل لا يبدو عليه أي اختلال نفسي.

خلف جذع شجرة الكافور التي سقط منها مرزوق، انحشرت بطاقة هوية باسمه ومهنته، وورقة متغضنة كتب في رأسها هذه الفقرة:

"أحيانا، أتمكن من التقاط لحظة فارقة وثيقة الصلة بفهم الحياة والناس. لحظة أصادفها وأنا جالس في مقيل مكتظ أو وحيداً في متكئي الأسمنتي أمام البيت. هنا اعتدت قضاء معظم فترات الظهيرة منذ أن نزلت عليّ نقمة التقاعد المبكّر. لا يهم أين ومتى أصادف هذه اللحظة الأثيرة. المهم هو ذلك الشعور بالارتياح الذي يجعل أنفاسي باردة كالنسيم الذي يسبق المطر، ثم يمنحني إحساساً شديد النقاء بالحب يمكّنني من رؤية كل شيء بعين قلبي. لماذا لا يدوم هذا النقاء؟ لماذا لا يدوم، لماذا لا يدوم؟".

في ذروة شعوره بالتعب من التشويش وثقل الحياة الساحق للروح والعظام، يتذكر مرزوق محاولاته المتشابهة للتمسك بلحظة كهذه؛ استعراضه الخاطف للوجوه، الأماكن، الأشياء والأزمنة. جميعها تخطر في ذهنه كصور واضحة وعالية الدقة، لكنها تمرّ بسرعة تضطره لتثبيت كل واحدة وتفحص

(*) قاص يمني.

تفاصيلها. يتفحص كل وجه، مكان، شيء وزمن، ثم يعلق في واحد منها لساعات حتى يلهث. هكذا يفقد تلك الرؤية التي يتيحها إحساسه المضيء وبالغ النقاء، بالحب. نعم "الحب". لم يتكرر ذكره في الورقة التائهة من تأملات المهندس المدني سوى مرة واحدة، وإذا لم يتنبّه الطبيب، الذي قدم إلى الحديقة برفقة ممرضة ورجلين عملاقين، لهذا الجزء من قصة المريض الذي هرب من المستشفى، فلن يتعافى المسكين طيلة حياته.

ضمن تأملات مرزوق، هناك ما يؤكد بأنه طالما علق لساعات يفكر بأن تلاشي لحظته المنقذة سببه محاولاته المجنونة لإطالة أمدها. لكنه رغم ذلك، لا يتوقف عن مطاردتها واستهلاكها دفعة واحدة. والحقيقة، أنه لا يجيد طريقة أخرى للاحتفاظ باستكانة عابرة تمكنه من فهم أسباب شقائه، بدلاً من النقمة العدمية عليها. هو يعتبر هذا حقيقة، وليس هناك من يفهم المرء أكثر من نفسه كما يقول. وبعد طول استجواب لنفسه وجلد كل المناطق المضيئة والمعتمة بداخله، يبصق على قلبه وعقله لفشلهما في اكتشاف السبب الجوهري للشقاء، ذلك الشقاء الذي يتناسل بصور متطابقة كما تفعل أسبابه. صور يقول إنها تمرق أمام

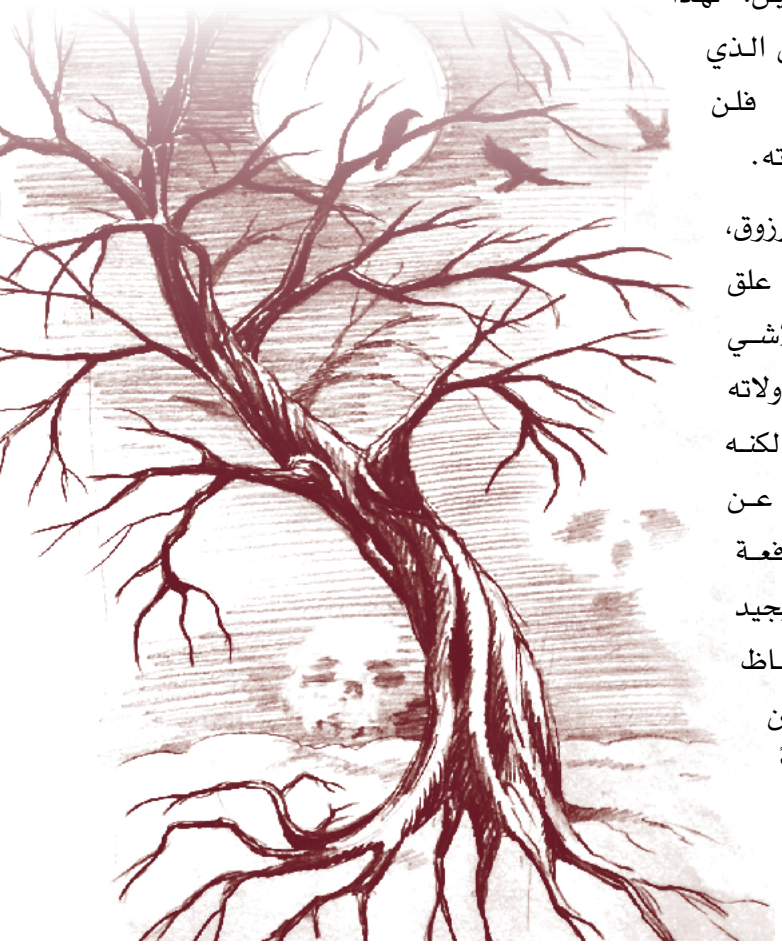

عينيه وجميعها متطابقة بحيث يستعصي على كل حواسه تمييز الحقيقي من المتوهم. حينها فقط، يشعر بعجزه عن التنفس، وبأن في داخله قبواً يستضيف حفلة زار.

آخر لحظاته الدخانية استمرت معه يوماً كاملاً- ويومه بطبيعة الحال يبدأ من الظهر إلى الفجر. استيقظ من نومه منقبض القلب، ثم ذهب لزيارة ابن صديق له أصيب في إحدى المعارك الدائرة على الساحل الغربي. في مقيل صديقه، الذي يبدو أيضاً أن زمالة مهنة قد جمعتهما منذ زمن بعيد، قضم مرزوق غصن قات شديد الطراوة وهو ينظر إلى الساق البيضاء لابن صديقه ثم إلى لحيته غير المتناسقة.

شعر بارتياح يسري في عروقه ومفاصله. ارتياح من النوع الذي يجعل الرئتين أكثر اتساعاً وحاسة الشم تلتقط رائحة النباتات العطرية من شرفات وسقوف البيوت المجاورة. بدأ في التفكير مباشرة حول ما إذا كانت زوجة صديقه تزرع الريحان والشذاب في شرفة مجلس الضيوف لإبقائه معطرا طوال الوقت. فكر بذلك ضمن مئات الصور والروائح التي يعالجها إحساسه المضيء بسرعة الضوء نفسه، وتساءل في نفسه: «لماذا لا تزرع زوجتي الريحان والنباتات العطرية في شرفة مجلسنا؟»

رغم دخان السجائر المختلط بعطور الجالسين في المقيل، التقط أنفه رائحة السبيرت من تحت ضمادة الشاش والجبس الملفوفة حول ساق الشاب. قدرته على التنفس العميق وتمييز الروائح عززت لديه الثقة بقدرته على مواجهة أكثر مشاعره تعقيداً، وتفكيكها. كانت أبسط استجابة لموضوعات النقاش المتشعبة في المقيل تعني فقدان صيده الثمين هذا. إنها بوادر "اللحظة الفارقة" وعليه أن يستأذن فورا بالانصراف بدون اعتبارات للياقة التي تقتضي الإصغاء لحديث صديقه عن إصابة ابنه وعن احتدام المعارك في الجبهة الغربية. بعد أن مرقت مئات الصور في ذهنه، بقيت صورة واحدة استحوذت على إحساسه في تلك اللحظة: زوجته التي فتحت له رأسها وما زالت تصر على أن ذلك هو شغاف قلبها. قرر أن يذهب إليها قبل أن يفقد إحساسه المضيء والفائق في صفائه.

"ليس هناك من يفهم المرء أكثر من نفسه". كرر لنفسه هذه العبارة عشرات المرات لمقاومة "الصورة المشوشة" التي قال إن زوجته دائماً ما تكرسها له. وفي طريق العودة إلى البيت فكر بكل شيء يخص علاقته بها؛ نصف عمره الذي قضاه وهو يحاول إقناعها بأن القلب المحب ليس بداخله أدوات حادة وأسواق، ليس فيه ضابط استجواب وجلسات مرافعة في حالة انعقاد دائم. وعلى مدى "ثلاثين سنة"، كان قد جرب كل طرق التودد وأساليب الإغواء والغمر العاطفي، التوسل وحدة الطباع، الإطراء والتماهي... لكن أكثر هذه المحاولات نجاحاً، لم تمنحه أكثر من "إقامة مؤقتة في فندق مهجور". ثم وجد نفسه يتحول تدريجياً إلى شخص آخر. لم يكترث لذلك التحول لأنه كان لا يزال يثق بقدرته على استعادة نفسه بمجرد استقراره في قلب حبيبته. يعرف الآن أنه كان مخطئاً. والشخص الآخر الذي بفضله حظي باستضافة مشروطة في قلبها، تحول إلى شخص ثالث، وهو من تسبب في إعادته إلى "الرأس اللعين". "أي جحيم ألعن من رأس المرأة وأي جنة أكثر دفئاً من قلبها.!" كان يقول لها ذلك محاولاً استعطافها وكم ردد على مسمعها "أحبك" دون جدوى. عندما وصل إلى البيت، أخذت حدة حواسه تمتد إلى لسانه. وكما يحدث لكل شيء يمر عبر اللسان، ظل يلهث من المغرب إلى الفجر. لهاث متصاعد استمر حتى بعد أن استلقى بجانبها على السرير عند منتصف الليل.

لم يعد في البيت أحد سواهما بعد أن تزوجت ابنتهما وغادرت مع زوجها وأخيها للدراسة في ماليزيا.

فكّر كثيرا بابنته وزوجها، ثم أغمض عينيه لتفادي رؤية بزوغ الصباح عبر النافذة؛ طالما قال لزوجته إن أي ضوء في الكون لا يمكنه تبديد ظلمة روحه. "المكان الوحيد اللي ممكن أستعيد فيه بصري هو قلبك". قال بصوت لاهث. ظل يهذي حتى أيقظها. "ليش ما ترجعي تحبيني زي زمان.. هاه؟" "ارقد وخليني ارقد. انا عازمة خواتي وصاحباتي بكرة." ردّت عليه بتثاقل ووجهها إلى الجدار. كان كل منهما في عالم مختلف. عاودته "النقمة العدمية" التي يثيرها افتقاده للحب. لم يجد في

فمه ما يكفي للبصق على قلبه وعقله. شعر بعطش أكثر من أي وقت مضى. عطش ولهاث وغضب، ندوب وجروح منكوءة وأخرى ما زالت تنزف. وأثناء محاولته استرداد أنفاسه، أوشك على الإغماء. بعد عدة أنفاس متلاحقة، شهق وأغمي عليه. ظنت زوجته أنه مات، لكنها استدعت أخاها لنقله إلى المستشفى. وهناك أفاق وهو يتحدث بكلام غير مفهوم وينبح.

عندما اقتربت منه الممرضة وفي يدها حقنة مهدئة، انتفض كالممسوس، وانطلق راكضاً عبر ممرات المستشفى، وكلما صادف امرأة توقف وأطلق في وجهها نبحتين قبل أن يقول لها: "أحبّك".

لم يتوقف عن الركض والنباح إلا بعدما دخل الحديقة المجاورة للمستشفى. اتكأ بظهره على جذع سميك لشجرة كافور عاصرت ثورتين وعشر حروب. تحت هذه الكافورة اختلس عدة لقاءات بحب حياته قبل أن يذهب لتوثيقه لدى كاتب العدل. أدار وجهه نحو الجذع الضخم باحثاً عن القلب الذي نحته كلاهما مناصفة. كان ذلك في لقائهما الأخير قبل الزواج، وعندما كانا يأخذان الولدين إلى الحديقة، كانا يتفقدان قلبهما المحفور على جذع الكافورة، ويحكيان لطفليهما فصولاً من قصة الحب التي جاءت بهما إلى هذا العالم. كان النصف الذي رسمته هي مفتوحاً من الأعلى. أخبرته بأن ذلك هو باب قلبها الذي سيظل مفتوحاً له إلى الأبد.

لا شك بأن السيد زمعر قد زار هذا المكان عدة مرات خلال مطاردته المضنية للحظته الفارقة، وعندما هرب من المستشفى في ذلك الصباح الربيعي الغائم، لا بد أن ذكريات كثيرة تناوشت "قلبه وعقله". بدا مثل كلب مسعور، حتى إنه دار حول الجذع وهو يمشي على ركبتيه ويديه؛ يدور حول الجذع وينبح، غير عابئ بالشفقة المصوبة نحوه من أعين النساء والأطفال، والرجال الذين يمشون بأنفة إلى جانب زوجاتهم. لم يجد أثراً لحبه على الجذع؛ فقط قلوب صغيرة منحوتة بأشكال متجاورة ومتداخلة، وبعضها حُفر فوق الآخر.

بعد أن تملكه اليأس، وقف على ركبتيه وعوى.

فوق الفروع السفلية لشجرة العشاق، رأى ثلاثة أشباح. كان مصراً على أنها في الأعلى ويتوسل الرجلين الضخمين أن يتيحا له فرصة الصعود إليها لكي يعانق الشبح الثالث. قال، موجهاً الكلام بحركة دائرية من وجهه على جمهور الفرجة: "شوفوا.. اثنين مع بعض والثالث لوحده. هذا حبيبتي. حرام تجلس لوحدها. صح؟" كان معظم المتفرجين ينظرون إليه وليس إلى المكان الذي يشير إليه بإصبعه. قال إن العاشقين اللذين إلى جوار حبيبته ينحتون الحروف الأولى من اسميهما وسط قلوب صغيرة، وإن عليه الصعود لنحت الحرف الأول من اسمه وسط قلب صغير، وبعد ذلك سيذهب إلى المستشفى بنفسه. غير أن الماردين سحباه بالقوة نحو سيارة الإسعاف. كان يهذي بانصياع وحسرة وغضب، ويعلم الله وحده كيف تمكن من الإفلات من قبضة تلك الأيدي الجبارة. عاد بسرعة البرق نحو الشجرة وفي طرفة عين كان يجلس على أحد الفروع السفلية ويرسم قلباً بأظافره. رفع رأسه وأطلق عواء طويلاً نحو قمة الشجرة الفارعة. لقد كان ينظر بعين قلبه ويرى داخله عبر الظلال الحبيسة داخل شجرة الكافور. ثم سقط ومازال يعوي.

زمن (ص.ب) عند الأدباء

بقلم: طلال سعد الرميضي*

كان التواصل في سنوات مضت ما بين الأدباء في مختلف البلاد عبر الرسائل الواردة والصادرة في صندوق البريد أو ما يرمز إليه ب (ص.ب)، وكانت الرسالة ذات ديباجة راقية ولغتها الرسمية سليمة، وقد تحتاج الرسالة لأكثر من أسبوع لتصل إلى المرسل إليه، وربما تضيع بين مراكز البريد المتعددة أثناء تنقلها .. والجدير بالذكر أنني لا زلت أحتفظ بكثير من الرسائل مع شخصيات ثقافية تواصلت معي في التسعينيات من القرن المنصرم حول مواضيع تاريخية وثقافية متنوعة.

والآن بعد الثورة التكنولوجية الهائلة أصبح التواصل سهلاً ومتاحاً عبر الأجهزة الذكية، و تصل الرسالة في لحظتها وبدون توقف لدى مراكز التفتيش الجمركي وانتظار مواعيد فتح أبوابها، وقد أتاحت لنا سهولة التواصل مع الأدباء خارج الكويت بكل يسر وسهولة، وهذه من الحسنات التي لا تنكر لهذه الأجهزة الذكية التي غدت جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية ومصدرا مهما في التثقيف وتعرف كل جديد من النتاج الأدبي، لذا كان من المأمول توجيه الشباب إلى الاستخدام الأمثل لهذه التقنية الجديدة التي تعينهم في كسب المعلومة وكذلك تشجيعهم لمتابعة الحسابات الثقافية الهادفة لمثقفين وجهات ثقافية تنشد الصالح العام بعيداً عن المصالح الضيقة التي انتحل أصحابها صفة الأدب والثقافة وتوغلوا بين المثقفين الحقيقيين.

ومن الظريف في هذا المقام أن الشاعر السعودي المبدع إبراهيم الدريهم قد أرسل لي عبر (الواتساب) رسالة جميلة فجاوبته بوردة ففاضت مشاعره بهذه الأبيات الشعرية الرقيقة:

تقبلتُ منك الوردة الحمراءِ
ياسيد الأحبابِ والأدباءِ
ولقد علمتُ بأنني أهل لها
لما أتتني منك ذات مساءِ
فبعثتُ نحوك أربعاً من جنسها
لتكون ناطقةً بدون رياءِ
فبمدح مثلك لاأزالُ مقصراً
حتى ولو بالغتُ في الإطراءِ
خذها إليك من المحب رسالةً
ضمنتها بمحبةٍ وثناءِ
مني إليك بعثتها مع نسمةٍ
نجدية الميلاد والأجواءِ
فلعلها تحظى لديك بموقعٍ
هو فوق كل مكانة وبناءِ

* أمين عام رابطة الأدباء الكويتيين - المشرف العام على «البيان».